الفصل الخامس

الحركة اللّغويّة وأثرها فى النهضة العلمية

بينت فيما سبق أن اللغة العربية لغة مرِنة ، ومرونتها جعلتها تستقبل القرآن الكريم لتكون لغته المعبرة عن معان سامية ، وتعبيرات راقية ، وتشريعات محكمة ، وآداب متكاملة، وقيم دينية صافية .

ولما فتح العرب البلاد الواسعة ، والأقطار الشاسعة ، ودخل الأعاجم فى دين الله أفواجاً،وأقبلوا على القرآن الكريم لقراءته، ومعرفة معانيه كان من الطّبعّى أن تنحرف ألسنتهم عن الصواب ، لتنطق الآيات القرآنية محرّفة، وكان الخطأ فى القرآن الكريم السبب المباشر فى قيام حركة لغوية في عهد مبكر لتصون كتاب الله عن تحريف ألسنة الأعاجم ، ولتضع لهم من الموازين والضوابط ما يساعدهم على قراءة كتاب الله تعالى على ما أنزل .

ونستطيع أن نرسم الخطوط العريضة لهذه الحركة اللغوية فيما يأتى :

ا - الحركة النحوية :

على الرغم من اختلاف الرّواة حول المؤسس الأول للحركة النحوية ، فإن الذى نستطيع أن نقوله : إن هذه الحركة بدأت مبكرة فى عصر الخلفاء الراشدين على يد أبى الأسود الدؤلى الذى راعه أنه سمع أعرابياً يقرأ بعض الآيات القرانية فيلحن فيما يقرأ، والرواية كما ذكرها ابن الأنبارىّ هى أنّه : « قدم أعرابى فى خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فقال : من يقرئنى شيئاً مما أنزل الله تعالى على محمد صلى الله عليه وسلم ، فأقرأه رجل سورة (براءة) فقال «أن الله بريٌء من المشركين ورسوله» بالجرّ ، فقال الأعرابى أو قد برىء الله من رسوله ؟ إن يكن الله تعالى بريء من رسوله ، فأنا أبرأ منه ؟ فبلغ عمر عليه السلام مقالة الأعرابى فدعاه ، فقال: يا أعرابى : أتبرأ من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : يا أمير المؤمنين : إنى قدمت المدينة ، ولا علم لى بالقرآن ، فسألت من يقرئنى ؟ فأقرأنى هذا سورة براءة فقال: «أن الله برىء من

المشركين ورسوله» - فقلت : أو قد برىء الله تعالى ؟ إن يكن الله تعالى برىء من رسوله ، فأنا أبرأ منه ، فقال عمر ، رضى الله عنه : من رسوله ليس هكذا يا أعرابى ؟ فقال : كيف هى يا أمير المؤمنين ؟ فقال : « أن الله بريء من المشركين ورسولُه (بالرفع) فقال الأعرابى : وأنا والله أبرأ ممّن برىء الله ورسولُه منهم، فأمر عمر رضى الله عنه أن لا يقرأ القرآن إلا عالم باللغة ، وأمر أبا الأسود الدؤلى أن يضع النحو » [١] .

وهناك رواية أخرى تذكر أن الخليفة الذى أمر أبا الأسود بوضع النحو هو علي كرم الله وجهه فقد روى أبو الأسود قال : « دخلت على أمير المؤمنين علي أبى طالب عليه السلام فوجدت فى يده رقعة فقلت . ما هذه يا أمير المؤمنين ؟ فقال: إنى تأملت كلام العرب فوجدته قد فسد بمخالطة هذه الحمراء يعنى الأعاجم - فأردت أن أضع شيئًا يرجعون إليه ، ويعتمدون عليه ، ثم ألقى إليّ الرقعة ، وفيها مكتوب :

الكلام كله: اسم وفعل وحرف، فالاسم ما أنبأ عن المسمّى، والفعل ما أنبىء عنه، والحرف ما أفاد معنى ، وقال لى : انح هذا النحو ، وأضف إليه ما وقع إليك» [٢] .

وفى رأيى أن رواية مَن روى أن عمر بن الخطاب هو الذى أمر بوضع النحو خطأ تاريخى تحتاج إلى تصحيح ، وخطأ هذه الرواية يتضح فى أن عمر بن الخطاب لم يفد إلي العراق زمن الإسلام ، وواضح أن النحو العربى نشأ فى البصرة كما اتفق المؤرخون على ذلك. وإنّى أميل إلى الرأى الذى يقول : إن أبا الأسود وضعه بأمر علي كرم الله وجهه، وعلىّ كرم الله وجهه فى حقْل العلْم عَلم لا يُبارى ، فقد روى عن النبى عليه السلام قوله:« أنا مدينة العلم وعلى بابها، فمن أراد العلم فليأته من بابه»[٣].

وقال عنه النبى صلى الله عليه وسلم : « اللهم اهد قلبه ، وسدّد لسانه » [٤] .

---

(١) نزهة الألباء / ٨-٩ .

(٢) المرجع نفسه / ٥٤ .

(٣) الاستيعاب فى معرفة الأصحاب ٢/ ١١ .

(٤) المرجع نفسه والصفحة .

وأبو الأسود نفسه مصاحبته لعلي كرم الله وجهه أمدّته بزاد من العلم والمعرفة شهد بها رجالات الفكر، وعلى رأسهم الجاحظ حينما قال عنه:«أبو الأسود الديلى معدود فى طبقة من الناس، وهو فيها كلها مقدّم، ومأثور عنه الفضل فى جميعها، وكان معدوداً فى التابعين والفقهاء والمحدثين والشّعراء، والأشراف، والفرسان، والأمراء والدهاة، والنحويين والحاضرين الجواب، والشيعة، والبخلاء والصُّلع والأشراف »[1].

وبفضل أبى الأسود نما النحو العربى فيما بعد، وتشابكت فروعه.

كل ذلك من أجل ضبط التراكيب اللغوية، واستخدام القواعد فى القراءة القرآنية. وليس ثمة شك فى أن اللغة العربية تطورت تطوراً كبيراً فى هذا العصر من حيث الاستعمالات الأسلوبية والتراكيب اللغوية، وبفضل النحو العربى تطورت الدراسات النحوية تطوراً كبيراً دلّ على جهد جبار من أجل صيانة اللغة العربية لغة القرآن الكريم من الخلل والفساد

وخلاصة القول أن اللغة فى نحوها فى العصر الأموى والعباسى حيث امتدت رقعة الدولة الإسلامية من المحيط الى الخليج، وحيث انتظم فى سلك الإسلام كثير من الأجناس الذين كانوا يَرْتضخون لُكْنات مختلفة، وحيث تعددت المذاهب، وكثرت الفرق ـ تطورت تطوراً كبيراً بهذا النحو الحارس الأمين على هذه اللغة، وبفضل الرجال الذين ظهروا على مسرحه، يرفعون الرّاية، ويدافعون عن اللغة.

وبسببهم تطورت اللغة تطوراً كبيراً من حيث الدراسات النحوية التى انتشرت فى أرجاء العالم الإسلامى لتعلّم لغة القرآن.

وهذه الدراسات تتمثل فى استقراء أساليب القرآن الكريم، وكلام العرب شعره ونثره، لوضع قواعد تضبط الأساليب، وقوالب تُصحّح التراكيب، ومعايير تحدد سلامة العبارة، ودقة ترتيب الكلمات بعضها ببعض.

ومن الرائع فى هذا المجال أن أسجل شهادة (يوهان فك) حيث ذكر فى مقدمة كتابه: « العربية » : « وقد تكفلت القواعد التى وضعها النّحاه العرب فى جهد لا يعرف الكلل، وتضحية جديرة بالإعجاب ـ بعرض اللغة الفصحى، وتصويرها فى جميع

---

(١) انظر : خزانة الأدب للبغدادى ١/ ٢٨١ ، ٢٨٢ ، تحقيق الأستاذ هارون

(٢) نزهة الألباء : ١٢ .

مظاهرها من ناحية الأصوات والصيغ وتراكيب الجمل ، ومعانى المفردات على صورة محيطة شاملة حتى بلغت كتب القواعد الأساسية عندهم مستوى من الكمال لا يسمح بزيادة المستزيد » (١) .

٢ - ضبط اللغة بتنقيط المصحف تنقيط إعراب :

وتنقيط المصحف نسب إلى أبى الأسود الدؤلى، وهذا التنقيط الذى قام به تنقيط إعراب.

وظواهر الإعراب كانت واضحة فى ذهن أبى الأسود حينما قال للكاتب الذى قام بجهد التنقيط : « خذ المصحف ، وصَبْغًا يخالف المداد ، فإذا فتحت شفتى فانقط واحدة فوق الحْرف ، وإذا ضَمَمْتُهمَا فاجعل النقطة إلى جَانب الحرف ، وإذا كسرتهما فاجعل النّقطة فى أسفله، فإذا اتبعت شيئاً من هذه الحركات غنة فانقط نقطتين ، فابتدأ بالمصحف حتى أتى على آخره » (٢) .

معنى هذا أنّ أول من تكلّم فى حركات الإعراب هو أبو الأسود ، وما النحو فى مظاهره المتعددّة ، وقضاياه المتشعبة إلاّ هذه الحركات التى تتناول معظم أبواب النحو : المرفوعات، والمنصوبات ، والمجرورات، والمجزومات .

ولعلّنا لا نبالغ إذا قلنا : إن نهج أبى الأسود فى تنقيط المصحف ، وبيان الحركة كان مصدراً لتعليل النحاة المتأخرين ، فالزّجّاجىّ فى كتابه : « الإيضاح » يعلل معني الرفع والنصب والجر تعليلاً لا يبتعد كثيراً عن تعليل أبى الأسود .

قال الزّجاجىّ : فنسبوا الرّفع كله إلى حركة الرفع ، لأن المتكلم بالكلمة المضمومة يرفع حنكه الأسفل إلى الأعلى ، ويجمع بين شفتيه ، والمتكلّم بالكلمة المنصوبة يفتح فاه ، فيبين حنكه الأسفل من الأعلى ، فيبين للناظرين إليه كأنه قد نصبه لإبانة أحدهما عن صاحبه .

وأما الجر فإنما سمّى بذلك ، لأن معنى الجر الإضافة ، ذلك أن الحروف الجارة تجرّ ما قبلها ، فتوصله إلى ما بعدها كقولك : مررت بزيد ، فالباء ، أوصلت مرورك إلى زيد ، وكذلك المال لعبد الله ، وهذا غلام زيد » (٣) .

---

(١) العربية ليوهان فك / ٢ تحقيق الدكتور عبد الحليم النجار .

(٢) نزهة الألباء / ١٢ .

(٣) الإيضاح / ٩٣ .

وتطورّت هذه النّقاط الإعرابيّة التى وضعها أبو الأسود لضبط الكلمات القرآنية على يد الخليل بن أحمد - إلى الحركات التى تضبط بها اللغة من ضم وفتح وكسر وسكون.

ولاشك فى أن ضبط القرآن الكريم أوّلاً ، ثم ضبط اللغة ثانيًا ظاهرة مستطورة فى بناء اللغة العربية حيث لم تكن هذه الحركات معروفة من قبل .

ولا أدلّ على ذلك « ما حكاه بعضهم عن بعض الأعراب أنه قيل له : أتهمز إسرائيل؟ فقال : إنى إذًا لرجل سوء ؟ » .

قالوا وربمّا قال ذلك ، لأنه لا يعرف من الهمز إلا الضغط والعصر »

وقيل لآخر : أتجر فلسطين ؟ فقال : إنى إذًا لقوىّ .

قالوا : وسمع بعض فصحاء العرب ينشد :

*** نحن بنى علقمة الأخيارا ***

فقيل له : لِمَ نَصَبْتَ (بنى) ؟ فقال : ما نصبته ، وذلك أنه لم يعرف من النصب إلاّ إسناد الشىء

قالوا : وحكى الأحنف عن أعرابى فصيح : أنه سئل أن ينشد قصيدة على الدال ، فقال : وما الدال ؟ (١) .

كل هذه الأمثلة تدل دلالة واضحة على أن هذه المصطلحات إنما نشأتْ بفضل القرآن الكريم الذى حمل المفكرين من أبناء الأمّة الإسلامية ليبتكروا هذه العلامات التى تضبط القرآن الكريم ، ومن ثـمّ تضبط لغته التى نزل بها ، وهذه العلامات هى المتمثلة فى علم النحو، ومن هنا صحّ لابن جنّى أن يقول عند تعرضه لتعريف النحو ما نصه: «النحو هو انتحاء سَمْت كلام العرب فى تصرفه من إعراب وغيره كالتثنية والجمع والتحقير والتكسير، والإضافة والنسب ، وغير ذلك ليلحق من ليس من أهل اللغة العربية بأهلها فى الفصاحة ، فينطق بها ، وإن لم يكن منهم ، وإن شَذّ بعضهم عنها ردّ به إليها» (٢) .

---

(١) أنظر هذه النصوص فى الصاحبى / ١١ .

(٢) الخصائص ١ / ٣٤ .

ويؤكد الرازى فى كتابه : « الزّينة » مكانة العربية وضرورة حذقها، والتعمق فيها فيقول : « ولو لا بالناس إلى الحاجة إلى معرفة لغة العرب ، والاستعانة بالشعر على العلم بغريب القرآن الكريم ، وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين والأئمة الماضين لبطل الشعر ، وانقرض ذكر الشعراء، ولعَفى الدّهر على آثارهم ونسى الناس أيامهم ، ولكن الحاجة بالمسلمين ماسة إلى تعليم اللغة العربية ، ومعانى الألفاظ فى القرآن الكريم والحديث ، إذ كان الإسلام قد ظهر - بحمد الله - فى جميع أقطار الأرض ، وأكثر أهل الإسلام من الأمم هم عَجَمٌ وقد دعتهم الضّرورة إلى تعلّم لغة العرب ، إذ كانت الأحكام والسنن مبيّنة بلسان العرب » (١) .

٣ - الضبط بالإعجام :

والإعجام هو تمييز الحروف المتشابهة بوضع نقاط لأمن اللبس ، وهو ظاهرة جديدة فى الخط العربى لم تكن معروفة من قبل ، وقد ناقش الدكتور خليل نامى رأى من يقول: «إن عامر بن جدرة هو الذى وضع الإعجام ، وهذا يخالف الواقع «لأن الخط العربى فى نشأته كان يكتب من غير تنقيط كما يظهر من النقوش العربية القديمة»(٢).

ويبدو أنّ وجهة نظر الدكتور خليل نامى قوية ، لأن العرب فى الجاهلية لم تنتشر بينهم الكتابة ، وكانت اللغة في شعرها ونثرها ، وحِكَمها وأمثالها تُنْقل عن طريق المشافهة أو الرّواية والسماع ، وحتى فى العصور المتأخرة كانت معظم الرسائل المتداولة بين الكتاب مجرّدة من النقط والشكل اعتماداً على فطنة القارىء ، وثقة بفهمه ، وإيماناً بذوقه، وتقديراً لأدبه .

قال أبو بكر الصّولى « كَرِه الكُتّاب الشّكل والإعجام إلا فى المواضع الملتبسة من كُتُب العظماء وإلى مَنْ دونهم (٣) .

---

(١) الزينة / ١١٦ .

(٢) مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة مجلد ٣ - مايو ١٩٣٥ .

(٣) أدب الكُتّاب لأبى محمد بن يحيى الصولى / ٥٧ .

وخير ما يصوّر كراهة الإعجام ما قاله أبو نواس :

يا كاتبـا كتـب الغـداة يسبّنـى ... من ذا يطيـق بـراعـة الكُتّـاب

لم ترض بالإعجـام حـين كتبته ... حتى شكلت عليه بالإعـراب

أحسست سوء الفهم حين فعلته ... أم لم تثق بى فى قراة كتاب [1]

وإعجام الحروف المتشابهـة بوضع نقاط فيها لأمن اللبس كان السّبب المباشر فى القيام به هو القرآن الكريم فقد روى ابن خلكان .

« أنّ النـاس غبروا يـقرءون فى مصحف عثمان بن عفان رضـى الله عنه نَيّفًا وأربعين سنة إلى أيام عبد الملك بن مروان ، ثم كثر التصحيف ، وانتـشر بالعراق ، ففزع الحَجّاج ابن يوسـف إلى كُتّابه، وسألهـم أن يضعوا لهـذه الحروف المتشـابهة علامات، فـيقال : إن نصـر بن عاصم قـام بذلك، فوضـع النّقط أفراداً وأزواجًا ، وخـالف من أماكـنها ، ففـبر الناس بذلك زماناً لا يكتـبون إلاّ منقوطاً ، فكان مع استعمال النقط أيـضاً يقع التّصحيف، فأحدثوا الإعجام ، فكانوا يتبعون النّقط الإعجام » [2] .

والنـاظر فى هذه الـرواية يرى أن النـقط غير الإعـجام ، ولم يكـن النقط حـائلا« دون وقوع القارىء فى الخطأ والتصحيف ، ومن ثمّ نشأت الحاجة إلى الإعجام ، فكانوا يتبعون النقط الإعجام.

وأنعمت النظر فى هذه الرواية ، فقلت : لـعلّ المراد بالنّقط الحركات التى أحدثها أبو الأسود وهى حـركات الإعراب ، ولكن يمـنع من قبول هـذه الرواية عبارة : وضـع النّقط الذى قام به نصر بن عاصم أفراداً وأزواجاً ، وهذا لا يتناسب مع شكل الحركات التى قام بها أبو الأسود .

وفى دوامة هذا البحث رأيت جرجى زيدان يلتبس عليه ما التبس علىّ ، وإذا به يخرج من هذا الإشكال بتخريج جميل ، فارتاحت نفسي لتخريجه .

---

(١) المرجع نفسه / ٦١ .

(٢) وفيات الأعيان ١ / ١٢٥ طـ ١٣١٠ .

يقول : « الظاهر أنّ النُّقطَ المذكورة هى من قبيل الإعجام لتمييز الحروف المتشابهة ، ولكن نصرًا هذا لم يُنقّط إلاّ بضعة حروف مما يكثر وروده ، ويخشي الألتباس فيه ، ثم رأوا القراءة لا تضبط إلا بتنقيط كلّ الحروف كما هى الآن ، وهذا ما عبرّوا عنه بالإعجام»[1] .

فالسبب إذًا فى وضع التنقيط هو كثرة التصحيف وانتشاره بالعراق ، فصيانةً لكتاب الله تعالى ودرءاً لشبهات التّحريف نقّط المصحف تنقيط إعجام ، وأصبح الإعجام ضرورةً لابدّ منها في الخطّ العربى ، وعادة مستحكمة فى الكتابة ، مَنْ أغفلها ذُمّ ، ومن أهملها حُوسب . لأن اللغة بعد اتساع رقعة العالم الإسلامى لا تقبل إهمال الحروف من النقاط حتى لا تختلط الكلمات ، وتلتبس النصوص « أَخْبَرَ محمد بن يحيى ابن العباس قال: «أهدى أحمد بن إسماعيل الكاتب إلى صديق له دفترًا فيه «حدود الفراء»، وكتب على ظهره .

خذه فقد سوغت منه مشبهاً ... بالرّوض أو بالبرد فى تفويفه
نظم كما نظم السحاب سطوره ... وتأنقّ الفرّاء فى تأليفه
وشكلته ونقطته فأمنت من ... تصحيفه ، ونَجَوْت من تحريفه
بُستَان خَطّ غير أن ثماره ... لا تُجْتنى إلا بشكل حُروفه [2]

٤ - جمع اللغة العربية وتدوينها :

من أجل الحفاظ على لغة القرآن الكريم، فقد تطورت اللغة العربية من حيث جمع مفرداتها لأن الاعتماد على الذّاكرة والألسنة لا يستطيع أن يحميها من السيّل الوافد، والبحر الزآخر المتمثّل فى لغة الأعاجم، ومنافستها للغة القرآن الكريم، فحتّى لا تضيع اللّغة فى متاهات واسعة بسبب انتشار الإسلام هَيَأ الله لها رجالاً قاموا بنقلها من الألسنة إلى الكتب، ومن المشافهة إلى التحرير على حد تعبير الأستاذ أحمد أمين فى كتابه (ضحى الإسلام) [3] .

---

(١) تاريخ التمدن الإسلامى ٢/ ٥٦ .

(٢) التصحيف والتحريف لأحمد العسكرى / ١١ .

(٣) ضحى الإسلام ٢/ ٣١٢ .

والمشكلة الكبرى التى وقفت فى طريق هؤلاء الجامعين للّغة تتضح فى أن استيعاب اللغة وحصرها أمر مستحيل ، فلغة العرب أوسع اللغات ، وقد نص على هذه الحقيقة الشافعىّ فى رسالته حيث يقول : « ولسان العرب أوسع الألسنة مذهباً ، وأكثرها ألفاظاً ولا نعلمه يحيط بجميع علمه إنسان غير نبىّ » (١) .

والكلمة المأثورة عن أبى عمرو بن العلاء حينما قال: « ما أتاكم من كلام العرب إلاّ أقلّه ولو جاءكم وافرًا لجاءكم علْمٌ وشِعر كثير » (٢) تأكيدٌ لهذه الحقيقة ، وتوثيق لهذا الواقع.

وابن فارس فى كتابه «الصاحبى» ينقد هذا الخبر الذى نسب إلى الخليل فى آخر كتاب من كتبه حيث قال : هذا آخر كلام العرب.

وفى نقد ابن فارس لهذا القول بين أنه مدسوس على الخليل حيث قال : « فقد كان الخليل أروع وأتقى لله جل ثناوءه من أن يقول ذلك» ، وبعد أن أشاد بالخليل وخلقه ، وعلمه ، وورعه ختم حديثه بقوله : « فهذا مكان الخليل من الدّين أفتراه يقدم على أن يقول : « هذا آخر كلام العرب » ثم إن فى الكتاب الموسوم به من الإخلال ما لاخفاء به على علماء اللغة ، ومن نظر من سائر الأصناف الصّحيحة علَم صحّة ما قلناه » (٣) .

ويبيّن الأستاذ أحمد أمين صعوبة جمع اللغة بكاملها « لأن ذلك كان يحتاج إلى سلطة عُليا دقيقة منظمة تضع خطة محكمة تشبه الخطة التي تضعها « مصالح الإحصاء الرسمية » فتحدّد القبائل التى يصح الأخذ عنها ، وتوجّه كلّ طائفة من العلماء إلى قبيلة أو جملة قبائل ، وترسم لهم طريقة الأخذ والتّدوين ، ولو فعلت لكان الحصر أو فى ، والضبط أتم ، ولما استطاع فرد أو أفراد أن يختلفوا أو يتزايدوا .

ولكن هذه الفكرة لم تكن فى ذلك العصر ، ولا يمكن أن تكون .... بل كانت الحركات العلمية مجهود الأمة نفسها فهم يتعلمون بمحض إرادتهم ، ويعلمون بمحض إرادتهم ، والرغبة الشخصية هى التى تدفع للتعلم ».

---

(١) الرسالة / ٤١ .

(٢) الخصائص ١/ ٣٨٦ .

(٣) الصاحبى/ ٢٦ ، ٢٧ .

ويسترسل الأستاذ أحمد أمين فى تطوّر اللغة العربية من حيث تدوينها وجمعها فيقول: «كان هذا العمل الفردى الاجتهادى سبباً فى أن لغوياً قد يفهم من مخالطته للعرب وسماعه للكلمة مدلولاً قد فهمه من القرائن ، على حين أن لُغَويًا آخر سمع هذه الكلمة ، وفهم من قرائن أخرى مدلولاً يخالف المدلول الذى فهمه الأول مخالفة قريبة أو بعيدة ، وهذا هو الذى يفسر ما نراه فى المعاجم التى بين أيدينا من إيراد احتمالات مختلفة لتفسير الكلمات .

وقد يكون لهذا سبب آخر ، وهو أن الكلمة قد تكون واحدة ، وتستعملها قبيلة فى معنىً، وتستعملها قبيلة أخرى فى معنى آخر .

وعدم النظام الذى ذُكر جعل الرّاوى لا يعيّن القبيلة التى أخذ منها هذه الكلمة ، وهذا المعنى غالباً. ولهم بعض العذر فى ذلك، فلو فعلوا لبلغ المعجم مجلدات عديدة» (١).

وعلى الرغم من أن رأى الأستاذ أحمد أمين له وجاهته ، فإن هذا المجهود الذى بذله الرّواة الجامعون للغة حرْصًا على سلامة القرآن كان عاملاً مهما من العوامل التى أبقت اللغة العربية حيّةً مصانةً ، ولم تستطع اللغات الأجنبية التى كان يموج بها العالم الإسلامىّ الكبير أن تقتحم حصون اللغة ، فتبعثر كنوزها ، وتبدد مفرداتها، وتقضى على أساليبها.

وبفضل هؤلاء سارت لغة القرآن فى دَرْب الزّمان شابّةً قويّةً لا تعرف الهرم ولا الشيخوخة لارتباطها بالقرآن الكريم من ناحية ، ولجوهرها الذى تميزت به من بين سائر اللغات من ناحية أخرى .

٥ - الرقابة اللغوية :

وقد كان رواة اللغة يقومون بدور الرقباء على الشعراء والكتاب والخطباء والمتأدبين ، وقصة يحيى بن يعمر مع الحجاج الثقفّى معروفة مشهورة فى كتب التاريخ ، فقد ذكر يونس بن حبيب أن الحجاج قال لابن يعمر : اتسمعنى ألحن على المنبر ؟ قال : الأمير أفصح من ذلك « فألحّ عليه فقال : حرفاً ، قال : أيًا؟ قال فى القرآن، قال

---

(١) ضى الإسلام ٢/ ٣١٢ - ٣١٤ بتصرف .

الحجاج : ذلك أشنع له ، فما هو ؟

قال تقول : « قل إن أن كان أباؤكم »[1] « إلى قوله عز وجل : أحبَّ : فتقرؤها: «أحبُّ »بالرفع ، والوجه أن تقرأ بالنصب على خبر كان ، قال : لا جرم ، لا تسمع لحناً، فألحقه بخراسان ، وعليها يزيد بن المهلب[2] .

ونستطيع أن نلمس فى قصة الحجاج مع ابن يعمر موقفين :

موقف اللاّحن ، وهو موقف غير مشرف بالنسبة للحجّاج ، وبخاصة فى مجال القرآن الكريم، وموقف الناقد لهذا اللحن الكاشف لعواره ، وهو موقف مشرّف ليحيى ابن يعمر حينما يذكر الحجاج بخطئه ، ويبين له مواقع لحنه ، ولكن اللحن ظاهرة خطيرة فى المجتمع العربى إذ ذاك ، وبخاصة إذا وقع من عربىّ قحّ كالحجاج بن يوسف ، وحاول الحجاج أن يبعد عوار اللحن عنه حتى لا ينتشر أمر هذا اللحن ، فيقل قدره بين رجالات عصره ، والعقاب الحاسم هو التخلّص من ذلك الناقد النحوى ليعيش بعيداً حتى لا يتتبع سقطات الخلفاء والولاة .

وهذه المراقبة نموذج يدلّ على مراقبة الخطباء ، وتتبع انحرافهم عن الصواب .

أما المراقبة على الشعراء ، فقصة عبد الله بن أبى إسحاق مع الفرزدق قصة تكررت فى كتب الطبقات ، فقد أخطأ الفرزدق فى قوله :

وعضّ زمان يابن مروان لم يدع من المال إلا مُسْحتًا أو مجلّفُ

حيث رفع كلمة : « مجلّف » .

والفرزدق شاعر عربىّ تربىّ فى أحضان العربيّة « وهو حامل لوائها فى هذه الفترة من التاريخ فكيف إذًا يتردّى فى هذه الهوّة السحيقة فيخطىء فى القول ، ويردّه ذلك الحضرمىّ ؟ ولذلك كان ردّ الفعل عنيفاً عند الفرزدق إذ هجا ابن أبى اسحاق بقوله :

فلو كان عبد الله مولى هجوته ولكن عبد الله مولى موالياً

ولم يسكت ذلك الناقد اللغوى عن هذا الهجاء ، فبيّن له أنه لحْنٌ لا يستقيم مع

---

(١) التوبة / ٢٤ . (٢) طبقات النحويين واللغويين ٢٨

العربية ، فقال ابـن أبى اسحاق بعد أن سمع هجاءه المتمثـل فى هذا البيت : « وقد لحنت أيضاً، والوجه أن تقول : مولى موال [١] .

ويبدو أن هـذا التتبع لشـعر الفرزدق لم يبـدأ على يد ابن أبـى إسحاق فقد سبـقه إلى ذلك النقد عنبسة الفيل ، فقد روى أبو عمرو بن العلاء ، قال : كنّا عند بلال بن أبى بردة، فأنشد الفرزدق :

تُريـك نجومَ الـلّيـل والشـمـس حيَّةٌ زحـام بـنـات الحـــارث بن عُبـادِ

فقال عنبسة بن معدان : الزحام مذكر ، فقال الفرزدق : اغْرُبَ

قال عـبد الله بن أبـى إسحاق : والـزحام له وجـهان : أن يـكون مصـدراً مثل الـطّعان والقتال من قولهم : زاحمـته زحاماً فهذا مذّكر كما قال عنبسة ، أو يكـون جمعاً للزحمة يراد بهـا الجماعة المزدحـمة فهذا مؤنـث ، لأن الزحام هو المزاحـمة ، كما أن الطـعان هو المطاعنة ، وقول عنبسة أقوى ، وأعرف فى الكلام » [٢] .

ونماذج المراقبة علي العبارات التي تجري عـلي الألسنة في مواقف الحديث أو التحدث كثيرة متعددة

من ذلك ما ذكره محمد بن سلام الجمحّي قال: قلت ليونس بن حبيب: إن عيسى ابن عمر قال:

صحّف أبو عـمرو بن العلاء في الحـديث: «اتقوا على أولادكـم فحمة العشـاء» فقال بالفاء، وإنمـا هي بالقاف، فقـال يونس: عيسى الذى صـحّف، ليس أبا عمرو، وهـي بالفاء كما قال أبو عمرو لا بالقاف كما قال عيسى » [٣] .

- ومن ذلك أيضاً ما رواه خلاد بن يزيد الأرقط عـن أبى عمرو بن العلاء أنه سمع أبا حنيفـة يبطل القَودَ إلا ما كـان قَتلاً بحديد ، فقـال له أبو عمرو : أرأيت إن ضـربه بكذا؟ أرأيت إن ضربه بكذا؟ قال : لو ضربه بأبوقبيس لم يكن عليه قَود ، فقال أبو عمرو: هذا كلام شنيع، قال أبو حنيفة : وما الشنع ؟ قال، ولا تعرف الشنع أيضاً»[٥].

---

(١) طبقات النحوين واللغوين / ٣٢ . (٢) الموشح / ١٦٦ .

(٣) المزهر ٢/ ٣٦٠ . (٤) أبو قبيس : جبل من جبال مكة .

(٥) مجالس العلماء / ٢٣٧ .

٦ - غريب اللغة العربية ، وكشف غموضة :

قبل أن نبدأ فى الحديث عن غريب القرآن الكريم ، ثم غريب اللغة نحبّ أن نبيّن المعنى المراد من مصطلح : الغريب » .

أبو سليمان الخطابى حدد معنى الغريب بقوله :

« الغريب من الكلام إنما هو الغامض البعيد عن الفهم ، كما أن الغريب من الناس إنما هو البعيد عن الوطن ، المنقطع عن الأهل .

وتعريف الخطابى للغريب يقوم على أمرين :

أحدهما : أنه يراد به أنه بعيد المعنى غامض ، لا يتناوله الفهم إلا عن بُعْد ومعاناة فكر.

والأمر الثانى : أنه يراد به كلام من بعدت به الدار من شواذ قبائل العرب فإذا وقعت إلينا الكلمة من لغاتهم استغربناها [١] .

والرافعى فى كتابه : « إعجاز القران » يحدد معنى الغريب بقوله :

« فى القرآن الكريم ألفاظ اصطلح على تسميتها بالغرائب ، ليس المراد بغرائبها أنها منكرة أو نافرة أو شاذّة ، فإن القرآن الكريم منزه عن هذا جميعه .

وإنما اللفظة الغريبة هاهنا هى التى تكون حسنة مستغربة فى التأويل، بحيث لا يتساوى فى العلم بها أهلها وسائر الناس » [٢] .

وبالموازنة بين هذين الرأيين نجد أنهما متقاربان فى معنى الغريب ، فكلاهما يعترف بأن الغريب ليس قريب المعنى ، ولا سهل المأخذ ، ولا فى متناول الفهم، ولكنه بعيد الغور لا يصل إليه إلا من غاص إلى معناه، ولقى ما لقى من المعاناة .

---

(١) انظر كشف الظنون / ١٢٠٣ .

(٢) إعجاز القرآن / ٧٤ .

والسبب المباشر فى جمع الكلمات الغريبة فى اللغة هو القرآن الكريم ، فقد حَفلَتْ طائفة من آياته الكريمة بألفاظ غريبة ، وكلمات غامضة يحتاج فى معرفتها إلى بيان ووضوح.

وفى رأى ابن خلدون أن القرآن الكريم لا يحتوى على الغريب الغامض من الكلمات، لأن العرب الخلص لا يصعب عليهم أن يفهموا كلاماً نزل بلغتهم ، ولم ينزل بلغة غريبة عنهم ، فمن البدهىّ إذًا أن يحيطوا بألفاظه علمًا ، وبكلماته فهماً ، وبأسلوبه إدراكاً ، فهو قرآن عربى ، نزل على قوم وصلوا إلى القمة فى فصاحة الألفاظ، وبلاغة المعاني .

يقول ابن خلدون ما نصه : « إن القرآن نزل بلغة العرب ، وعلى أساليب بلاغتهم فكانوا كلهم يفهمونه ، ويعلمون معانيه فى مفرداته وتراكيبه » (١) .

وفى رأيى أن ابن خلدون تجاوز الصواب فى هذا القول ، لأن العرب أمّة فيهم من علا كعبه وارتفع شأنه في استيعاب لغة العرب ، ومعرفة مواقع كلامها ، والوقوف على معانى ألفاظها، ودلالة مفرداتها ، وفيهم من ليس كذلك ، فالحكم على العرب جميعاً بأنهم يفهمون القرآن ، ويعلمون معانيه حكم مبالغ فيه ، تخالفه الأدلة التالية .

أ - ذكر ابن قتيبة فى كتابه : « المسائل » أن العرب لا تستوى فى المعرفة بجميع ما فى القرآن الكريم من الغريب والمتشابه ، بل لبعضها الفضل فى ذلك على بعض ، والدليل قول الله عز وجل : « وما يَعْلَم تأويلَهُ إلاّ الله والرّاسخون فى العِلْم » (٢) .

ب - قول بعضهم : يا رسول الله ، إنّك لتأتينا الكلام من كلام العرب ما نعرفه ، ونحن العرب حقًا فقال : إنّ ربى علّمنى فتعلمت » (٣) .

---

(١) المقدمة / ٤٠٣ مطبعة الشعب .

(٢) آل عمران / ٧ .

(٣) المسائل لابن قتيبة لوحة ٤ مخطوط مصور .

جـ - قول ابن تيمية فى كتابه : « أصول التفسير » : « ويجب أن يعلم أن النبىّ صلّى الله عليه وسلم بيّن لأصحابه معانى القرآن الكريم كما بيّن لهم ألفاظه ، فقوله تعالى «لتُبيِّن للنّاس مانُزّل إليهم » [1] يتناول هذا ، وهذا » [2] .

د - ما رواه أبو عبد الرحمن السّلمى قال : « حدّثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن الكريم كعثمان وعبد اللّه بن مسعود وغيرهما أنهم إذا تعلموا من النبىّ صلّى الله عليه وسلم عشر آيات لم يجاوزوها حتى تعلّموا ما فيها من العِلْم والعمل ، قالوا : فتعلّمْنا القرآن والعلم والعمل جميعاً » [3] .

- **أمثلة** توضح أن العرب لم يكونوا على مستوى واحد فى فهم غريب القرآن :

١ - لما نزل قوله تعالى : « الّذين آمنوا ولم يَلْبِسُوا إيمانَهُم بِظُلْم أُولئك لَهُم الأمْن »[4] قال بعض الصّحابة : « وأينّا لم يظلم نفسه ؟ ففسّر النبى عليه السلام الظلم بالشّرك ، واستدل عليه بقوله : « إن الشّرك لظلمٌ عظيم » [5] .

٢ - حديث عدىّ بن حاتم قال : « لما نزلت : « حتى يتبيّن لكم الخيط الأبيض م الخَيْط الأسود من الفَجْر » [6] قال: عَمَدْتُ إلى عقال أسود ، فجعلت أنظر فى اللّيل ، ولا يستبين لى ، فغدوت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذكرتُ له ذلك ، فقال إنما ذلك سواد اللّيل وبياض النّهار » [7] .

٣ - ومن الأمثلة على ذلك أيضاً الألفاظ الإسلامية ، وهذه الألفاظ كان لها دلالات لغوية تختلف عن دلالاتها فى القرآن الكريم كالصلاة - والحج - والزكاة .. إلخ .

---

(١) النحل / ٤٤ .

(٢) مقدمة أصول التفسير / ٥ .

(٣) المرجع نفسه والصفحة .

(٤) الأنعام / ٨٢ .

(٥) لقمان / ١٣ .

(٦) البقرة / ١٨٧ .

(٧) انظر : تفسير الألوسى ٢/ ٦٧ .

- الغريب بعد الفتوحات الإسلامية :

فى عصر الرّسول عليه الصلاة والسلام والصحابة كانت الكلمات القرآنية الغريبة محدودة محصورة ، لأن هذا العصر كان اللسان العربى فيه صحيحاً محروساً لا يتداخله الخلل ، ولا يتطرّق إليه الزلل ، فبعد أن فتحت الأمصار ، واختلط العرب بغيرهم ، انحرفت الألسنة ، وتداخلت اللّغات، ليؤثر بعضها فى بعض ، مما أثّر فى بناء اللغة العربية ، فقلّت المعرفة باللغة واستبهم الكثير من ألفاظها ، فكثُر الغريب الذى لم يكن فى عصر الرّسول عليه السلام وعصر أصحابه غريبًا .

يتحدّث عن هذه الظاهرة الطارئة على ساحة اللغة العربية ابن الأثير فى كتابه : «النهاية» فيقول :

اختلطت الفرَق ، وامتزجت الألسنة ، وتداخلت اللّغات، فتعلّموا من اللّسان العربىّ ما لابد لهم فى الخطاب منه، وحفظوا من اللّغة ما لا غنى لهم فى المجاوزة عنه ، وتركوا ما عداه لعدم الحاجة إليه ، وأهملوه لقلّة الرّغبة فى البحث عنه، وتمادت الأيام، والحالة هذه على ما فيها من التّماسك والثّبات ، واستمرت على سنن من الاستقامة والصّلاح إلى أن انقرض عصر الصّحابة ، والشأن قريب، والقائم بواجب هذا الأمر لقلته غريب ، وجاء التّابعون لهم بإحسان ، فسلكوا سبيلهم ، لكنهم قلُّوا فى الإتقان عدداً، واقتفوا هديهم ، وان كانوا مدّوا فى البيان يدًا ، فما انقضى زمانهم على إحسانهم إلاّ واللّسان العربىّ قد استحال أعجمياً أو كاد ، فلا ترى المُسْتَقل به، والمحافظ عليه إلا الآحَاد » [1] .

ومن هنا رفع التابعون راية تفسير غريب القرآن الكريم حتى تتضح معانيه، وتفهم دلالته.

وقد انتشر التابعون بعد أن اتسعت رقعة البلاد الإسلامية ، لنشر دين الله ، وتفسير القرآن الكريم، وحلّ مشكلات غريبه .

---

(١) مقدمة النهاية ١/ ٥ .

وعن هؤلاء الناشرين تفسير غريب القرآن ، والمعلّمين فى حقله اللغوىّ تحدّث ابن الأثير بعد أن أشاد بالسّلف فى عصر الصحابة والرسول ، فقال :

« هذا والعصر ذلك العصر القديم ، والعهد ذلك العهد الكريم ، فجعل الناس من هذا المهم ما كان يلزمهم معرفته ، وأخروا منه ما كان يجب عليهم تقدمته ، واتخّذوه وراءهم ظهريًا، فصار نسيًا منسيًا ، والمشتغل به عندهم بعيداً قصيًا ، فلما أعضل الداء، وعز الدواء ، ألهم الله عزّ وجلّ جماعة من أولى المعارف والنهى وذوى البصائر والحجى أن صرفوا إلى هذا الشأن طَرَفًا من عنايتهم ، وجانباً من رعايتهم ، فشرعوا فيه للناس مواردًا ، ومَهّدوا فيه لهم معاهدًا حراسةً لهذا العلم الشريف من الضّياع ، وحفظاً لهذا المهم العزيز من الاختلال [1] .

ولاشك أنه بسبب القرآن الكريم نشأ علم غريب القرآن الكريم الذى اشتغل به علماء الإسلام منذ عصر الصحابة والتابعين إلى أن ألفت فيه الكتب ، وأعدت فى مجاله المصنفات .

وذكر صاحب كتاب : « مفتاح السعادة » أن من أشهر التابعين فى مجال دراسة غريب القرآن فى مكة: مجاهد ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة ، وطاوُس ، وعطاء بن أبى رباح.

وعميد هذه المدرسة ابن عباس، فمعظم روايات هؤلاء التابعين تسند إلى ابن عباس.

ومن أشهر رجالات تفسير غريب القرآن الكريم بالمدينة : زيد بن أسلم، وأبو العالية ومحمد بن كعب القرظى ، وعميدها أبىّ ين كعب [2] .

وقد أفرد السيوطى فصلاً فى كتابه « الإتقان » عن غريب القرآن ، والمصنّفات التى صنفها العلماء فى مجاله فقال ما نصه :

أفرده بالتصنيف خلائق لا يحصون منهم أبو عبيدة ، وأبو عمر الزاهد ، وابن دريد.

---

(١) مقدمة النهاية / ٥ .

(٢) انظر مفتاح السعادة ٢/ ٩٢ .

ومن أشهرها كتاب العزيزى ، فقد أقام فى تأليفه خمس عشرة سنة يحرّره هو وشيخه أبو بكر بن الأنبارى .

ومن أحسنها المفردات للرّاغب ، ولأبى حيّان فى ذلك تأليف مختصر »[1] .

- غريب القرآن الكريم ، وغريب الحديث الشريف :

هناك أحاديث كثيرة تبين أن النبى صلى الله عليه وسلم نهى عن كتابة أحاديثه صيانة للقرآن الكريم حتى لا يختلط به ما ليس منه :

ومن هذه الأحاديث الصريحة فى النهى ما رواه أبو سعيد الخدرى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لا تكتبوا عنّى شيئًا سوى القرآن ، فمن كتب عنى شيئًا سوى القرآن فليمحه »[2] .

وعن أبى سعيد الخدرى أيضاً قال : « استأذنت النّبى صلى الله عليه وسلم أن أكتب الحديث فأبى أن يأذن لى »[3] .

ويروى الخطيب البغدادى عن أبى هريرة قال : « خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نكتب الأحاديث ، فقال : ما هذا الذى تكتبون ؟ قلنا : أحاديث سمعناها منك ، قال : أكتاباً غير كتاب الله تريدون ؟ ما أضل الأمم من قبلكم إلاّ ما كتبوا من الكتب مع كتاب الله »[4] .

قال أبو هريرة : أنتحدّث عنك يا رسول اللّه ؟ قال : نعم ، تحدّثوا عنّى ولا حَرَج فمن كَذَب علىّ متعمّدًا فليتبوأ مقعده من النّار »[5] .

ولما وثّق القرآن الكريم توثيقًا متينًا ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ،

---

(١) الإتقان ١/ ١١٣ .

(٢) تقييد العلم للخطيب البغدادى / ٢٩ .

(٣) المرجع نفسه والصفحة .

(٤) المرجع نفسه والصفحة .

(٥) المرجع نفسه والصفحة .

واجتمع المسلمون على مصحف واحد هو المصحف العثمانىّ الذى قضى على الفتنة التى كادت أن تطل برأسها بين المسلمين فى تعدّد المصاحف ، واختلاف القراءات ، أقول لما أمن المسلمون على المصحف من أن تتسرّب إليه ألفاظ الحديث الشريف شمر المسلمون عن ساعد الجد فى كتابة الأحاديث فى عهد عمر بن العزيز ، وتحرّوا الدقة فى كتابتها ، والتأنى فى تحريرها، والتحرّى الكامل فى تسجيلها .

وبينَ لنا الحسن بن عبد الرحمن الهرمزى المتوفّى ٣٦٠ هـ السّبب فى كراهية كتابة الحديث فى الصدر الأول على عهد الرّسول عليه السلام وأصحابه فقال :

- « وإنما كره الكتابة مَنْ كره من الصدر الأول لقرب العهد ، وتقارب الإسناد ، ولئلا يعتمده الكاتب فيهمله ، ويرغب عن حفظه ، والعمل به .

فأما والوقت متباعد ، والإسناد غير متقارب ، والطرق مختلفة ، والنقلة متشابهون وآفة النسيان معترضة ، والوهم غير مأمون ، فإن تقييد العلم بالكتابة أشفى وأولى ، والدليل على وجوبه أقوى » (١) .

قال البغدادى : « وكان غير واحد من السلف يستعين على حفظ الحديث بأن يكتبه ويدرسه من كتابه ، فإذا أتقنه فى الكتاب خوفاً من أن يتّكل القلب عليه ، فيؤدى ذلك إلى نقصان الحفظ ، وترك العناية بالمحفوظ » (٢) .

ونتبين من هذا أن كتابة الأحاديث كانت تسير جنباً إلى جنب مع حفظه واستيعابه، ولاشك أن التقاء المحفوظ بالمكتوب يؤدى إلى سلامة نصّ الحديث الشريف من التصحيف والتحريف، فمنذ عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم نجد أن المسلمين حفظوا عن نبيهِّم كل أقواله وأفعاله وأحواله ، وسيرته ، لأن الرسول المعصوم الذى لا ينطق عن الهوى هو المبلغ عن ربه، والدّاعى إلى نوره، وهو المبيّن لما أنزل، الموضح لما شرع ، وهو الذى أعلن فى حجة الوداع أن على المسلمين أن يبلغوا عنه ، «فليبلغ

---

(١) نقلاً عن مقدمة التحقيق لكتاب (تقييد العلم) للبغدادى .

(٢) تقييد العلم / ٦٠ .

الشاهد الغائب ، فرب مبلّغ أوعى من سامع » .

وكانت هذه انطلاقة كبرى انتشرت أنوارها فى الجزيرة العربيّة أولاً ، ثم أشرقت أنوارها فى أرجاء العالم الإسلامى ثانياً حينما حمل المسلمون الراية القرآنية ، وراية سنته يخفقان جنباً إلى جنب على ربوع الدنيا .

ولا أدلّ على عناية المسلمين بأحاديث نبيّهم من هذا الجهد العظيم الذى قاموا به في محيط دراستها إلى أن تكوّن من هذه الدراسة علم نضج واحترق ، وهو علم الحديث يقول عنه ابن خلدون فى مقدمته :

« وأما علوم الحديث فهى كثيرة متنوعة ، لأن منها ما ينظر فى ناسخه ومنسوخه ، ومعرفة الناسخ والمنسوخ من أهم علوم الحديث وأصعبها .

قال الزهرى : أعيا الفقهاء وأعجزهم أن يعرفوا ناسخ حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم من منسوخه ، وكان للشافعى رضى الله عنه قدم راسخة » [1] .

أثر القرآن الكريم في تطور لغة الحديث الشريف:

الرسول عليه السلام كان أُمِّيًا يقرأ ولا يكتب ، ولكنه حينما حمل رسالة القرآن المعجز كان كلامه عليه السلام قبساً من نور الذكر الحكيم ، وكان كلامه عليه السلام فى الدرجة العليا من حيث بلاغة التعبير ، وجزالة اللفظ ، وسمو المعنى ، وحُسْن النظم مع أنه كما قلت : لا يخط بيمينه حرفاً ، ولا يقرأ بلسانه كتاباً ، وفى كل كلمة تصدر من فيه عليه السلام أو لفظة تجرى على لسانه إشراقة نور ، ومنبع حكمة ، ومصدر هداية ، لقد أوتى جوامع الكلم وهى جوامع شحنت بما يدلّ على العقل الواسع ، والفكر المتزن ، والإدراك الكبير للثقافة والعلم .

وخير ما نسترشد به فى هذا المقام إجابته المشهورة لأبى بكر الصديق رضى الله عنه حينما سأله مرة فقال : لقد طفت فى العرب، وسمعت فصحاءهم، فما سمعت أفصح

---

(١) مقدمة ابن خلدون من ٤٠٥ - ٤٠٧ طبع دار الشعب .

منك ! فمن أدّبك ؟ فقال أدبنى ربى فأحسن تأديبى » [١] .

ومن الحق أن نقول : إن محمداً عليه السلام تربى فى أحضان القرآن ، فأشرق كلامه وسما أسلوبه ، وعلت فصاحته ، مما جعله أبلغ العرب إلى جانب النشأة الأولى التى عاشها فى البادية حيث استرضع فى بنى سعد بن بكر ، والبادية تطبع من يحيا فى رحابها، ويعيش فى ساحتها ، وتحت سمائها - على « سلائق فصيحة ، وألسنة ذليقة إلى عارضة شديدة ، وبداهة عجيبة ، واستحواذ الى جيد الكلام » [٢] .

- وصف الزمخشرى لبلاغة الرسول عليه السلام:

ولله دَرّ الزّمخشرىّ فقد وصف بلاغة الرسول عليه السلام بأحسن بيان ، وأجمل عبارة، وأقوى أسلوب حينما قال .

- « ثم إن هذا البيان العربىّ كأن الله عزت قدرته مخضه ، وألقَى زُبْدته على لسان محمد عليه أفضل صلاة ، وأوفر سلام ، فما من خطيب يقاومه إلا نكص متفكك الرّجّ[٣] ، وما من مُصقع يناهزه إلا رجع فارغ السَّجْل ، وما قرن بمنطقه منطق إلا كان كالبِرْذَوْن مع الحصان المُطَهّم ، ولا وقع من كلامه شىء فى كلام الناس إلا أشبه الوَضَح[٤] فى نقبَة [٥] الأدهم . قال عليه السلام : « أوتيت جوامع الكلم، وقال: أنا أفصح العرب بيد أنّى من قريش ، واسْتُرْضِعْت فى بنى سعد بن بكر [٦] .

- وصف الجاحظ لبلاغة الرسول عليه السّلام :

ويصف الجاحظ بلاغة الرسّول عليه السلام فيقول : « هذا كلام الذى قَلّ عددُ

---

(١) نظر أدب الحديث النبوى / ١٠٣ للدكتور بكرى شيخ أمين - دار الشروق - بيروت .

(٢) الأعرابيّات لخليل مردم / ٦ .

(٣) كناية عن العجز والضعف .

(٤) الوضح : الضوء والبياض .

(٥) نقبة الأدهم : أى وجه الفرس أو لونه .

(٦) من مقدمة الزمخشرى فى كتابه : « الفائق فى غريب الحديث » .

حرُوفه ، وكَثُر عَدُد معانيه ، وجلّ عن الصّنعة، ونزه عن التكلّف ، استعمل المبسوط فى موضع البسط ، والمقصور فى موضع القصر ، وهجر الغريب الوحشى ، ورغب عن الهجين السّوقى ، فلم ينطق عن ميراث حِكْمة ، ولم يتكلم إلا بكلام قد حُفّ بالعصمة ، وشُدّ بالتأييد ،ويُسِّرّ بالتوفيق .

وهذا الكلام الذى ألقى الله المحبّة عليه ، وغشّاه بالقبول ، وجمع بين المهابة والحلاوة، وبين حُسْن الإفهام ، وقلّة عدد الكلام ، مع استغنائه عن إعادته وقلة حاجة السامع إلى معاودته لم تسقط له كلمة : ولا زلّت به قدم ، ولا بارت له حجة، ولم يَقُم له خَصْم ، ولا أفحمه خطيب ، بل يَمُذّ الخُطَب الطِّوال بالكلام القصير، ولا يلتمس إسكات الخَصْم إلا بما يعرفه الخصم ، ولا يحتج إلا بالصدق ، ولا يطلب الفلْج[1] إلا بالحقّ ، ولا يستعين بالخلابة ، ولا يستعمل المواربة ، ولا يهمز ولا يلمز ، ولا يبطىء ولا يعجل ولا يسهب ، ولا يحصر ، ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعمّ نفعاً ، ولا أصدق لفظاً ، ولا أعدل وزنًا ، ولا أجمل مذهبًا ، ولا أكرم مطلبًا، ولا أحسن موقعًا ، ولا أسهل مخْرجاً ، ولا أفصح عن معناه، ولا أبين عن فحواه من كلامه صلى الله عليه وسلم »[2] .

- غريب ألفاظ الحديث النبوىّ :

ليس ببدع أن يشتمل الحديث الشريف على غرائب لغوية ، وألفاظ تحتاج إلى كشف عن معانيها ، شأنه فى ذلك شأن غريب القرآن الكريم .

ونحن نعلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم عربّى ، وأُوتى جوامع الكلم ، وملمّ بلغات العرب يتكلم مع كل قوم بلغتهم ، ويشاركهم فى أحاديثهم ، ويسمعّ كلامهم من دون عناء فى فهمه ، أو صعوبة فى كشفه .

وقد كثر الغريب فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم كثرة دعت الخطّابى يقدح زناد فكره، ليبين سبب هذه الكثرة .

---

(١) الفلج بسكون اللام ، وفتح الفاء : الظّفر والفوز .

(٢) البيان والتبين للجاحظ ٢/ ١٧ تحقيق هارون.

يقول الخطابى : « إنه صلى الله عليه وسلم بُعث مبلّغاً ومُعلّماً فهو لا يزال فى كل مقام يقومه ، وموطن يشهده يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، ويشرع فى حادثة ، ويُفْتى فى نازلة ، والأسْماع إليه مصغية ،والقلوب بما يَردُ عليها من قوله واعية ، وقد تختلف عنها عباراته ، ويتكرر فيها بيانه ، ليكون أوقع للسامعين، وأقرب إلى فهم من كان منهم أقل فقهًا ، وأقرب بالإسلام عهدًا.

وأولو الحفْظ والإتقان من فقهاء الصّحابة يُرعونها كلَها سمعًا، ويستوعبونها حفظًا ، ويؤدّونها على اختلاف جهاتها ، فيجمع لذلك فى القضية الواحدة عدة ألفاظ تحتها معنًى واحد ، وذلك كقوله : « الولد للفراش وللعاهر الحَجر » ، وفى رواية أخرى : «وللعاهر الأثلب» [1] وقد مر بمسامعى ولم يثبت عندى وللعاهر الكثكث » [2] .

ومن الكتب التى وضعها العلماء حول غريب الحديث « كتاب الغريبين » للهرويّ .

فقد صنف كتابه ليجمع فيه بين غريبْى القرآن العزيز والحديث الشريف ، «ورتّبه مقفّى على حروف المعم ، فاستخرج الكلمات اللغوية الغريبة من أماكنها ، وأثبتها فى حروفها ، وذكر معانيها ، وإذ كان الغرض والمقصد من هذا التصنيف معرفة الكلمة الغريبة لغةً وإعراباً ومعنىً ، لا معرفة متون الأحاديث والآثار ، وطرق أسانيدها ، وأسماء رواتها ، فإن ذلك علم مستقل بنفسه مشهور بين أهله.فجاء كتابه جامعًا فى الحُسْن بين الإحاطة والوضع ، فإذا أراد الإنسان كلمة غريبة وجدها فى حرفها بغير تعب إلا أنه جاء الحديث مفرّقاً فى حروف كلماته حيث كان هو المقصود والغرض، فانتشر كتابه بهذا التسهيل والتّيسير فى البلاد والأمصار ، وصار هو العمدة فى غريب الحديث والآثار[3] .

---

(١) فى القاموس : الأثلب : الحجارة .

(٢) الكثكث أيضاً : الحجارة : « من كتاب غريب الحديث لأبى سليمان الخطابى مخطوط بالمكتبة السليمانية باستانبول نقلاً عن مقدمة الزميل الدكتور محمود الطناحى لكتاب «منال الطالب فى شرح طوال الغرائب» نشر مركز البحث العلمى بمكة المكرمة ..

(٣) من مقدمة النهاية لابن الأثير ١/ ٨ ، ٩ .

ونترك المجال للهروى ليبين بنفسه منهجه فى كتابه : « الغريبين » .

قال رحمه الله : « فإن اللغة العربية إنّما يحتاج إليها لمعرفة غريبى القرآن وأحاديث الرسول عليه السلام ، والصحابة والتابعين ، والكتب المؤلفة فيها جمّة وافرة ، وفى كل منها فائدة ، وجمعها متعب ، وحفظها عن آخرها معجز ، هذا والأعمار قصيرة ، والعلوم كثيرة ، والهمم ساقطة ، والرغبات نائمة ، والمستفيد مستعجل ، والحفظ كليل، والحرص قليل ، فمتى اشتغل المرء بتحصيلها كلها بعدت عليه الشّقةُ، وعظمت الكُلْفة ، وفات الوقت ، واستولى الضجر .

فاستخرت الله ـ عز وجلّ وتقّدس - فيه ، وسألته التوفيق له ، ليكون تذكرة لنفسى مدى حياتى، وأثرًا حسناً لى بعد وفاتى - إنْ شاء الله ، وبه الثقة .

ثم وضح منهجه بقوله :

- « وهو موضوع على نسق الحروف المعجمة ، نبدأ بالهمزة ، فنفيض بها على سائر الحروف حرفاً حَرْفاً ، ونعمل لكل حَرف باباً ، ونفتح كلّ باب بالحرف الذى يكون آخره الهمزة ، ثم الباء ، ثم التاء إلى آخر الحروف ، ليصير المفتش عن الحرف إلى أصابته من الكتاب بأهون مَسْعىً ، وأحث طلب ، وشرطى فيه الاختصار إلا إذا اختل الكلام دونه» (١) .

- نماذج من تفسير غريب القرآن الكريم بالحديث الشريف :

١ - « تالله لقد آثرك اللّه علينا » (٢) .

قال الهروى : أى فضّلك ، يقال له علىّ أثرة أى فضل .

وفى الحديث : « إنكم ستلقون بعدى أثرة » أى يستأثر عليكم، فيفضل غيركم نَفْسه عليكم فى الفىء (٣) .

---

(١) مقدمة الغريبين لأبى عبيد الهروى .

(٢) يوسف / ٩١ .

(٣) الغريبين ١/ ١٥ .

٢ - « لقد جئتم شيْئاً إدّا [١] .

قال الهرويّ : يقال : جاء بأمر إدٍّ أى مُنكر عظيم ، ومنه حديث على : قال رأيت النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام ، فقلت : ما لقيت بعدك من إلادَ .

والإد : الدواهى العظام ، واحدتها إدّه [٢] .

٣ - « وأذنتْ لربها وحُقّت » [٣] .

قال الهروى : أى سمعت سمع طاعة ، ويقول: وبه سميت الأذن أذنًا، وفى الحديث : « ما أَذن الله بشىء كإذنه لنبىّ يتغنى بالقرآن » .

يريد : ما استمع الله لشىء ، واللَّهُ لا يشغله سمْعٌ عَن سَمْعٍ » [٤] .

ونكتفى بهذا القدر من غريب الهروى لننتقل بعد ذلك إلى كتاب آخر له شهرة واسعة فى مجال غريب الحديث وهو:

« الفائق فى غريب الحديث للزمخشرى » .

فى مقدمة (النهاية) قارن ابن الأثير بين كتابى الهرَوى والزَمخشرى ، فقال متحدثاً عن كتاب الزمخشرى « صنف كتابه المشهور فى غريب الحديث ، وسماه : الفائق ، ولقد صادف هذا الأسم مسمّى، وكشف من كل غريب الحديث كل معمّى، ورتّبه على وضع اختياره مُقفّى على حروف المعجم » .

ثم قارن بين الكتابين بقوله : « ولكن فى العثور على الحديث منه كلفة ، ومشقّة إلى أن يقول : « فكان كتاب الهروى أقربَ متناولاً ، وأسهل مأخذًا إن كانت كلماته متفرقة فى حروفها ، وكان النفع به أتم ، والفائدة منه أعمّ [٥] .

وفى رأيى أن « الفائق » للزمخشرى لم يهتم كثيرًابالألفاظ القرآنية الغريبة فى كل

---

(١) مريم / ٨٩ .

(٢) الغريبين ١ / ٢٩ .

(٣) الانشقاق / ٢ .

(٤) الغريبين ١ / ٢٣ .

(٥) انظر مقدمة النهاية .

ما عرض له من أحاديث اللهم إلا بعض ألفاظ جاءت على سبيل الاستطراد، ولم تكن مقصودة فى منهجه الذي رسمه لنفسه فى هذا الكتاب ، وهو كشف معانى غريب الحديث مؤيدة بالشعر ، وبالقول المأثور من كلام العرب .

فإذا جاءت ألفاظ قرآنية تحتوى على مادة غريب الحديث نفسها لم يشر إليها إلا لمامًا ولَمْ يفعل كما فعل الهروىّ حيث تتبع هذه الألفاظ الغريبة فى الحديث فى ضوء غريب ألفاظ القرآن الكريم .

على أن الزمخشرى فى منهجه يطمئن الباحثين والدارسين بأنه بذل كل ما فى جهده للوصول إلى حقيقة هذا الغريب معتمدًا على «فسْر موضّح [1] وكشف مُفْصح ، اطّلعت به على حاقّ المعنى ، وفصّ الحقيقة اطّلاعاً مؤدّاه طمأنينة النفس ، وثلج الصّدر مع الاشتقاق غير المستكره ، والتصريف غير المتعسّف، والإعراب المحقق البصرىّ، الناظر فى نص سيبويه ، وتقرير الفسوى [2] فأية نفس كريمة ، ونسمة زاكية نوّر الله قلبها بالإيمان والإيقان ، مرت على هذا التبيان والإتقان فلا يذهبنّ عليها أن تدعو لى بأن يجعله الله فى موازينى ثقلاً ورجُحاناً ، ويثيبنى عليه رَوْحاً وريحاناً [3] .

- نماذج من غريب الحديث فى فائق الزمخشرى:

١ - فى الحديث : « كانوا يتأمون شرار ثمارهم فى الصّدقة » أى يقصدون ، وفى قراءة عبد الله : « ولا تأموا الخبيث » [4] .

٢ - الرّوح هو القرآن .

خطب صلّى الله عليه وسلم فقال : تحابّوا بذكر الله وبُروحه » والروح: القرآن كقوله تعالى : « وكذلك أوحينا إليك روحًا من أمْرنا» [5] .

---

(١) الفسر : التفسير والبيان .

(٢) الفسوى : أبو على الفارسي النّحوى المشهور .

(٣) انظر مقدمة الفائق للزمخشرى .

(٤) البقرة / ٢٦٧ ، وانظر الفائق ١/ ٥٩ .

(٥) الشورى / ٥١ وانظر الفائق ٢/ ٨٩ .

٣ - قال تعالى : « لا مُعقِّب لحُكْمه »[١] .

وفى حديث أنس رضى اللّه عنه : أنه سئل عن التّعقيب فى رمضان فأمرهم أن يصلُّوا فى البيوت أى أن يصلُّوا عقب التراويح[٢] .

٤ - « وعَنت الوجوه »[٣] .

العَنْوة: القَهْر والذّل .

وفى حديثه صلى الله عليه وسلم . عودوا المريض ، وأطعموا الجائع ، وفكّوا العانى»[٤] .

وبعد ، أليست هذه الدراسات اللغوية فى غريب الحديث كان لها أكبر الأثر فى تطور اللغة العربية لأستيعاب كثير من ألفاظها التى كان يجهلها الكثير من الناس؟ ولا أبالغ إذا قلت : إنّ العرب الخلص كان يقف بعضهم إزاءها حائرًا ، لأن اللغة كما قلنا لا يحيط بها إلاّ نبىّ .

فلما اتسعت البلاد ، وتعددت الأمصار ، وانتشر القرآن وكثرت رواية الحديث كانت الحاجة ماسّة إلى هذا التطور اللغوى الكبير فى كشف الغموض ، وإزالة الستار عن كثير من الألفاظ المجهولة، والمفردات الغريبة ، والكلمات الغامضة ، ليقف الناس على محتواها ، ويعلموا ما جهلوا منها ، ويعرفوا ما تشير إليه معانيها حتى ترتفع الجهالة باسم الإسلام، وينمحي الظلام باسم القرآن .

- غريب القرآن الكريم وغريب اللغة :

العلاقة بين غريب القرآن وغريب اللغة بصفة عامة علاقة وطيدة، فلولا تفسير القرآن الكريم لما اهتدى العلماء فيما بعد إلى القيام بحركة جمع غرائب اللغة وتفسيرها

وإن دلّ هذا على شىء فإنما يدل على وعْيٍ كامل للوقوف على معانى بعض

---

(١) الرعد / ٤١ .
(٢) الفائق ٣/ ٣١ .
(٣) طه / ١١١ .
(٤) الفائق ٣/ ٣١ .

الألفاظ المستغلقة لإيضاح معناها ، وإبراز دلالتها ، أمّا المعروف الذى يفهمه الجميع والمستعمل على الألسنة ، فلا يشكّل خطرًا على اللغة ، لأن الخطر الأكبر هو وجود كلمات فى اللغة يصعب على رجالها معرفة معانيها .

وقد عقد السيوطى بابا فى كتابه «المزهر» حول هذه المشكلة مشكلة الغرائب فى اللغة، فقد عرض النوع الثالث عشر : معرفة الحوشى والغرائب ، والشواذ ، والنوادر . قال:

- « هذه الألفاظ متقاربة، وكلها خلاف الفصيح .

حوشىّ الكلام:

قال فى الصحاح : حوشى الكلام : وحشيّه وغريبه .

وقال ابن رشيق فى العمدة: الحوشىّ من الكلام : ما نفر عن السمع ، ويقال له أيضًا حوشى ، كأنه منسوب إلى الحوش ، وهى بقايا إبل «وبار» بأرض قد غلبت عليها الجن فعمرتها ، وثنت عنها الأنس ، لايطؤها إنسيٌّ إلا خبلوه .

قال رؤبة :

* جرّت رجالاً من بلاد الحوش *

قال : وإذا كانت اللفظة حسنة مستغربة لا يعلمها إلا العالم المبرز ، والأعرابى القُحّ، فتلك حوشيّة» .

الغرائب:

ويعرف السيوطى الغرائب ، فيقول : « والغرائب : جمع غريبة ، وهى بمعنى الحوشى».

النوادر:

وهناك كلمات استعمالها فى اللغة نادر ، وأطلق عليها مصطلح : النوادر، وقد شرع اللغويون فى حصر هذه النوادر لإيضاح معناها ، وبيان مغزاها ، ومعرفة دلالتها.

ويبين السيوطى أن هذه النوادر جمعها اللغويون ، وقاموا فى ضوء ما جمعوه بشرحها من أجل استيعاب اللغة ، ومعرفة ما نَدر منها ، فيقول :

« وقد ألف الأقدمون كُتُبًا فى النوادر كنوادر أبى زيد ، ونوادر ابن الأعرابى ، ونوادر

أبى عمرو الشيبانى وغيرهم .

وفى آخر الجمهرة أبواب معقودة للنوادر ، وفى الغريب المصنف لأبى عبيد باب لنوادر الأسماء ، وباب لنوادر الأفعال » .

الشّوارد:

وأما الشوارد فهى جمع شاردة وهي بمعنى الغرائب ، وأصل التشريد : التفريق فهو من أصل باب الشذوذ » .

ويضع ابن هشام مقياساً لمصطلحات اللغويين الذين جمعوا اللّغة ليسلّطوا عليها أضواء البحث والدراسة ، ليكون السائر فى طريقها على بينة من أمرها ، فيقول :

« اعلم أنهم يستعملون غالباً وكثيراً ، وقليلاً ، ومطّرداً ، فالمطّرد لا يتخلف ، والغالب أكثر الأشياء ، ولكنه يتخلف ، والكثير دونه ، والقليل دونه ، والقليل دون الكثير ، والنادر أقل من القليل ، فالعشرون بالنسبة إلى ثلاثة وعشرين غالبها، والخمسة عشر بالنسبة اليها كثيرٌ لا غالب ، والثلاثة قليلٌ ، والواحد نادر ، فعلم بهذا مراتب ما يقال فيه ذلك » [1] .

وقد وضع ابن فارس كلام العرب فى معايير مختلفة ، ولكل معيار درجته فى الوضوح والإبانة أو عكسهما ، وذلك فى الباب الذى عقده فى كتابه : «الصّاحبى » وعنون له بقوله : باب مراتب الكلام فى وضوحه وأشكاله فيقول :

« أمّا واضح الكلام ، فالذى يفهمه كل سامع عرف ظاهر كلام العرب كقول القائل :

شربت ماء ، ولقيت زيدًا.

وكما جاء فى كتاب اللّه جل ثناؤه من قوله : حرّمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير » [2] وكقول النبى صلى الله عليه وسلم : إذا استيقظ أحدكم من نومه ، فلا يغمس يده فى الإناء حتى يغسلها ثلاثاً » [3] .

وكقول الشاعر :

إن يحسدونى فإنى غير لائمهم قبلى- من الناس- أهل الفضل قد حسدوا[4]

---

(١) انظر هذه النصوص في المزهر / ٢٣٣ ٢٣٤ .

(٢) المائدة / ٣ .

(٣) صحيح البخارى بشرح فتح البارى ١/ ٢٣٠، والجامع المفهرس لألفاظ صحيح مسلم رقم ١٦٨٧٣ .

(٤) نسبة المرتضى فى أماليه ١/ ٤١٤ للكميت بن زيد .

المشكل :

وأما المُشْكل ، فالذى يأتيه الإشكال من غرابة لفظه .. أو أن يكون الكلام فى شىء غير محدود ، ويكون وجيزاً فى نفسه غير مبسوط ، أو تكون ألفاظه مشتركة» .

وقد وضع ابن فارس يدنا على أمثلة لكل نوع من أنواع هذا المشكل . فقد مثل للمشكل لغرابة لفظه بقول القائل :

- (يَمْلَخ فى الباطل مَلْخاً) (١) .
- (ينفض مذْرَويه) (٢) .
- ومنه فى الحديث : (أيُدالكُ الرجُلُ المرأَة؟ قال : نعم إذا كان مُلْفَجاً (٣) .
- ومثّل للذى يشكل، لأنه لا يحدّ فى نفس الخطاب كقوله جل ثناؤه : « أقيموا الصّلاة » (٤) .

فهذا مجمل غير مفصل حتى فسره النبى صلى الله عليه وسلم .

- ومثل للذى أشكل لوجازة لفظه كقولهم :

* الغمرات ثم ينجلينا * (٥) .

- ومثل الذى يأتيه الإشكال لاشتراك اللفظ بقول القائل

* وضعوا اللجّ على قَفَيَّ * (٦)

وعلى هذا الترتيب يكون الكلام كله فى الكتاب ، والسنة ، وأشعار العرب ، وسائر الكلام (٧) .

---

(١) أى يمرّ فيه مرّا سَهْلاً .

(٢) المذروان : أطراف الأليَتَيْن ، ومعناه : إذا جاء باغيا يتهدد .

(٣) المدالكة : المماطلة، والملفج : الذى أفلس وعليه دين .

(٤) الأنعام / ٧٢ .

(٥) هذا رجز نسب إلى الأغلب العجلى ، ومعناه اصبر فى الشدائد فإنها تنجلى ، وانظر الفاخر للمفضّل بن سلمة / ٣١٨ ، وفصل المقال للبكرى ٢١٠ ، ومجمع الأمثال ٢/ ٥٨ وقبله: نقارع السِّنين عن بيننا

(٦) هذا نثر قاله طلحة بن عبيد الله القرشىّ أحد العشرة المبشرين بالجنّة حينما بايع مكرها : واللج : السيف ، بلغة طيئ ، أو هذيل ، وقفىّ أى قفاى وهى لغة طائية - انظر الفائق ٣/ ٢٩١ ، واللسان ٣/ ١٧٨

(٧) انظر الصّاحبى ٦٩ ، ٧٥ .

٧ - المعاجم :

المعجم مصطلح استحدث فى الإسلام بمعنى : إزالة غموض الكلمة بشرحها وبيانها. وقد ذكرت فيما سبق أن المصحف إلى جانب تنقيطه تنقيط إعراب ، فقد نقط تنقيط إعجام وبينت أن الإعجام هو تمييز الحروف المتشابهة بوضع نقاط لأمْن اللَّبْس .

والجذر اللغوى « عجم » معناه يراد به الإبهام ، وهو ضد البيان .

قال ابن جنّى فى الخصائص : « مِنْ ذلك العجَم لأنهم لا يُفْصحون .. ومنه عجمة الرَّمْل لما استبهم منه على سالكيه فلم يتّوجه لهم .

ومن ذلك : استعجمت الدار : إذا لم تجب سائلها قال :

صُمّ صداها وعفا رسْمُها واستعجمتْ عنْ مَنْطق السّائل [١]

ومنه : قيل لصَلاة الظهر والعصر العجْماوان ، لأنه لا يفصح فيهما بالقراءة وهذا كلّه على ما تراه من الاستبهام ، وضد البيان ، ثم إنهم قالوا : أعجمْتُ : الكتاب إذا بيّنته وأوضحْته ، فهو إذاً لسلب معنى الاستبهام لا إثباته » [٢]

وإطلاق كلمة المعجم على المصنف الذي يحوى مفردات اللغة ، وبيان معانيها لم تكن معروفة عند اللغويين القُدماء ، وإنما عرفت عند المحدِّثين.

« فوضع أبو يعلى أحمد بن على بن المثنى المتوفى ٣٠٧ هـ كتاباً سماه : معجم الصحابة، وكذلك صنع البغوى المحدث أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز المتوفى ٢١٥ هـ كتابيه : المُعجم الكبير ، والمعجم الصّغير [٣] .

وإذا نظرنا إلى مصادر اللغة فى معاجمها المتسلسلة ابتداء من الخليل بن أحمد المتوفى سنة ١٧٠ هـ أو ١٧٥ هـ ، وانتهاء بالمصباح المنير للفيومى المتوفى ٧٧٢ هـ .

---

(١) لامرىء القيس ديوانه : ١٤٨ واستعجمت : لم تستطع أن تبين لعجزها

(٢) الخصائص ٣/ ٧٥ ، ٧٦

(٣) المعاجم العربية للدكتور عبدالسميع محمد أحمد ١٦

لم يطلق على مصدر منها كلمة معجم ، وإنما سميت باسماء معينة ، كلّ اسم منها يحمل اسم مصنفه أو مؤلفه .

فمصنّف الخليل هو « العين » ، ومصنف ابن دريد المتوفى ٣٢١ هـ هو «الجمهرة» ومصنف الأزهرى المتوفى ٣٧٠ هـ هو : « التهذيب » ومصنف الجوهرى المتوفى ٣٩٨هـ : « الصّحاح » ، ومصنّف الزمخشرّى ت ٥٣٨ هـ هو « أساس البلاغة » ومصنف ابن منظور المتوفى ٧١١هـ هو « لسان العرب » ، ومصنف الفيروزابادي المتوفي ٨١٦ هـ « القاموس المحيط » .

وفى العصر الحديث أطلقت كلمة « معجم » على : المعجم الكبير ، والمعجم الوسيط اللذين أصدرهما مجمع اللغة العربية بالقاهرة .

والذى يعنينا هو أن العلماء فى وقت مبكر جدًا حرصوا على جمع ألفاظ العربية فى المصنفات التى أشرنا إليها، وإن لم تحمل كلمة معجم من الناحية الشكلية فهى معاجم من الناحية المعنوية ، لأنها وضعت لحصر الألفاظ الغريبة، وبيان المستعمل منها والمهمل، وشرح معانى هذه الكلمات لتتضح بعد غموض ، وتظهر بعد خفاء ، وتفهم بعد إبهام.

١ - معجم الخليل بن أحمد :

يعتبر كتاب « العين للخليل بن أحمد أول كتاب صنّف فى جمْع اللّغة العربية .

قال السيوطى فى المزهر : « أول مَنْ صنّف فى جمع اللغة الخليل بن أحمد ألف فى ذلك كتاب « العين » المشهور وقد استدل السيوطى على ذلك بقول الإمام فخر الدين فى «المحصول » : أصل الكتب المصنفة فى اللغة كتاب : « العين » [١] .

وقد أثار السيوطى قضية كبيرة ناقش جوانبها ، واستوعب أطرافها ، وهى قضية نسبة الكتاب للخليل .

وسواء كان الكتاب من عمل الخليل أو من عمل تلميذه اللّيث بن نصر بن سيّار

---

(١) المزهر ١/ ٧٦ .

فلا شك أنه عمل كبير ، وبخاصة فى عصر لم ينضج فيه التأليف والتصنيف ، ويعتبر هذا العمل بحق ابداعاً من الخليل لم يسبقه أحد إليه قبل ذلك .

والخليل فى معجمه جمع مفردات اللغة العربية عن طريق الاستقراء ، وهو فى جمعه لا يفرق بين المهجور والمشهور ، بَيْن ماوضح معناه أو كان معناه غريباً .

ولاشك أن وراء هذا الجميع فلسفة معيّنة اتّبعها ، وهدفاً واضحاً سعى إليه ، فاللغة فى نظره المهجور منها والمشهور سواء ، لأن المهجور لو وجد من يستعمله لما كان مهجوراً، والغريب ليس غريباً إلا لخفاء معناه ، فإذا اتضح معناه زالت منه الغرابة .

واللغة وحدة لا تجزأ ، فليس من منهج الخليل أن يفرق بين مفرداتها من خلال المشهور والمهجور ، وإذا اقتصر على المشهور وحده لأدى ذلك إلى نقصان اللغة على مرّ الأزمان . لأجل هذا عَمِل الخليل فى دَأب وحرص شديدين أن يستوعب كلام العرب جميعاً ما وضح منه وما غمض .

ولا أدل على قدرته فى الاستيعاب ، وتمرّسه بالاستقراء « أن مبلغ عدد أبنية كلام العرب المستعمل والمهمل على مراتبها الأربع ، من الثنائى، والثلاثى، والرباعى والخماسى من غير تكرار اثنا عشر ألف ألف ، وثلاثمائة ألف وخمسة آلاف وأربعمائة واثنا عشر[٢] .

ولا غرو فى هذا العمل الرائع الذى قام به الخليل من غير مثال يحتذى ، ومن غير عمل سابق به يهتدى ، لأن الخليل كما قال عنه أبو بكر محمد بن حسن الزبيدى اللغوىّ مؤلف « مختصر العين » ما نصه .

« والخليل بن أحمد أوحد العصر ، وقريع الدهر ، وجهبذ الأمة ، وأستاذ أهل الفطنة الذى لم ير نظيره ، ولا عرف فى الدنيا عديله ، وهو الذى بسط النّحو ، ومدّ أطنابه ، وسبّب علله ، وفتّق معانيه ، وأوضح الحجاج فيه حتى بلغ أقصى حدوده،

---

(١) مقدمة العين .

(٢) المزهر ١/ ٧٤ .

وانتهى إلى أبعد غاياته ، ثم لم يرض أن يؤلف فيه حَرْفاً أو يرسم منه رسماً. نزاهةً بنفسه، وترفّعاً بقدره ، إذْ كان قد تقدّم إلى القول عليه ، والتأليف فيه ، فكَرِه، أن يكون لِمَن تقدّمه تالياً ، وعلى نظر من سبقه محتذياً ، واكتفى فى ذلك بما أوحى إلى سيبويه من عمله، ولقّنه من دقائق نظره ، ونتائج فكره ، ولطائف حكمته» (١) .

٢ - كتاب الجمهرة لابن دريد:

كتاب الجمهرة لابن دريد كتاب نسج على منوال كتاب : « العين » ، لأن كتاب «العين» المثال الذى سار على ضوئه اللّغويون الذين جاءوا من بعده.

ويختلف كتاب الجمهرة عن العين فى أن كتاب الجمهرة اقتصر مؤلفه فقط على الكثير من كلام العرب أو على حدّ تعبيره « الجمهور من كلام العرب » وترك الحوشىّ من الكلام ، ولذلك سماه كتاب « الجمهرة » .

ويشيد ابن دريد فى مقدمة كتابه بالخليل بن أحمد مبيناً منزلته اللغوية ، وأن من جاء بعده فهو سائر على دربه، مرتشف من نبعه ، مقتبس من نوره.

والذى حدا بابن دريد لتأليف الجمهرة أنه وجد كتاب العين مستواه أرفع، وعلمه أوسع، ومسائله أعمق ، فادراك ألفاظه، واستيعاب معانيها تتناسب لعصر كعصر الخليل حيث كان الفهم ثاقباً ، والذّكاء مشتعلاً ، والفطنة حادة ، أما فى عصر ابن دريد حيث كلّت الأفهام ، وخمد الذكاء ، وتبلّدت الفطنة ، فإن العصر يحتاج إلى كتاب لغوى يتناسب مع المستوى العصرى حتى لا تضيع اللغة ، وتظل مسيرتها فى درب الأمان ، وطريق الحياة متصلة غير منقطعة، وثابتة غير مهتزة .

ولنترك ابن دريد فى الجمهرة ، ليبيّن لنا بأسلوبه الهدف من تأليفه هذا الكتاب قال فى خطبته :

« ألف أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفرهودى - رضوان الله عليه - كتاب

---

(١) المرجع نفسه / ٨١ .

« العين » فأتعب من تصدّى لغايته ، وعنّى من سما إلى نهايته ، فالمنصف له بالغلب معترف ، والمعائد متكلّف ، وكلّ من بعده له تبع ، أقرّ بذلك أم جحد؟ ولكنه - رحمه الله - ألفّ كتابه مُشْكلاً لثُقوب فهمه ، وذكاء فطنته ، وحدّة أذهان أهل دهره.

وأمليا هذا الكتاب ، والنقص فى الناس فاش ، والعجز لهم شامل إلا خصائص كدراريّ النجوم فى أطراف الأفق ، فسهّلنا وعره ، ووطأنا شأزه [1] ، وأجريناه على تأليف الحروف المعجمة ، إذ كانت بالقلوب أعبق وفى الأسماع أنفذ ، وكان علم العامّة بها كعلم الخاصّة ، وألغينا المستنكر الوحشى ، واستعملنا المعروف ، وسمّيناه كتاب الجمهرة ، لأنا أخذنا له الجُمْهور من كلام العرب ، وأرجأنا الوحشى المستنكر » [2].

وعلى الرغم من نقد ابن نفْطويه : إبراهيم بن محمد بن عرفة لابن دريد وكتابه فإن كتاب ابن دريد (الجمهرة) أشاد به الأزهرىّ ، مبينًا أن نفطويه كان مغالياً فى نقده الجمهرة ، لأنه كان بينهما منافرة عظيمة حيث إن ابن دريد هجاه بقوله :

لو أنزل الوحى على نفطويه ... لكان ذاك الوحْى سخُطاً عليه
وشاعر يُدْعى بنصف اسمه ... متأهل للصفع فى أخْدَعَيْه [3]
أحرقه الله بنصف اسمه ... وصيرّ الباقى صُراخاً عليه

ولاشك أن نفطويه كان لاذعاً فى نقده ، جريئا فى هدمه ، حاداً فى أسلوبه حينما هجا ابن دريد بقوله :

ابن دريد بقره ... وفيه عىّ وشره
ويدّعى من حمقه ... وضْع كتاب الجمهره
وهو كتاب العين ... إلاّ أنه قد غيّره

وكان الأزهرى منصفاً حينما أورد الهجاء بينهما ، وعقب على ذلك بقوله : «وقد

---

(١) الشأز : الشديد الصعب

(٢) انظر مقدمة الجمهرة والمزهر ١/ ٩٢ .

(٣) الأخدعان : عرقان فى جانب العنق

تقرر فى علم الحديث أن كلام الأقران فى بعضهم لا يقدح »[1] .

٣ - كتاب « الصّحاح »:

من تأليف الإمام أبى نصر إسماعيل بن حمّاد الجوهرىّ .

من منهجه فى هذا المعجم الاقتصار على الصّحيح من الكلام ، ولهذا سَمّى كتابه «الصحاح» .

يقول فى مقدمة كتابه :

« قد أودعت هذا الكتاب ما صحّ عندى من هذه اللّغة التى شرّف الله منزلتها، وجعل علم الدّين والدّنيا منوطاً بمعرفتها ، على ترتيب لم أسبق إليه ، وتهذيب لم أغلب عليه بعد تحصيلها بالعراق رواية، وإتقانها دراية . وشافهنى بها العرب العاربة فى ديارهم بالبادية، ولم آل فى ذلك نصحاً، ولا ادّخرت وُسعًا.

وفى ضوء هذه المقدمة تبين ما يلى :

أ - الجوهرى التزم الصّحيح من كلام العرب ، وهو مخالف فى ذلك الخليل الذى جمع بين المستعمل والمهمل ، والواضح والغريب .

ومخالف أيضاً لابن دريد ، لأن ابن دريد جمع معظم كلام العرب وليس كله

وهذه الجمهرة من كلام العرب ليست موثقة توثيقاً تطمئن إليه النفس، لأنه قد تسرب إلى هذه الجمهرة بعض اضطراب التصنيف، وفساد التصريف كما يقول ابن جنّى فى الخصائص[2] .

ب - الجمهرة جرت فى نهجها وتنسيقها على الأسس التى قام عليها كتاب العين كما أشرت إلى ذلك سابقاً ، على حين اقتصر صاحب الصّحاح على الصحيح وحده بعد التنقيب والفحص ، والدقة والإمعان .

جـ - مصادر الصحاح تلقاها الجوهرى بالرواية ، وأتقنها بالدراية ، وأيّدها بالمشافهة، والأخذ عن العرب العاربة فى ديارهم بالبادية .

وهو أمر لم ينصّ عليه فى الجمهرة ابن دريد الذى اتخذ منهجه من منهج العين

---

(١) انظر المزهر ١/ ٩٣ ، ٩٤ (٢) المرجع نفسه ١/ ٩٣ .

وموضوع مادته من كتاب العين ذاته ، وهو ما رماه به نفطويه حينما سجل فى شعره أن كتابه هو العين ذاته بعد تغيير معالمه ، وطمس اسمه .

ويشيد أبو زكريا التبريزى بكتاب « الصحاح » فيقول :

« وكتاب الصحاح هذا كتاب حسن الترتيب ، سهل المطلب لما يراد منه ، وقد أتى بأشياء حسنة . وتفاسير مشكلات من اللغة »[1] .

٤ - المجمل لابن فارس :

من منهج ابن فارس فى مجمله :

١ - الأقتصار على الواضح من كلام العرب .

٢ - الالتزام بما صحّ من هذا الكلام .

٣ - تجنب الوحشى المستنكر .

٤ - الاعتناء بالكلام المشهور الدّالّ على غرر القول من تفسير وحديث وشعر .

٥ - الاعتماد على السماع فى نقل الكلام .

٦ - والمصادر المكتوبة فى اللغة من الممكن الأخذ منها إذا كان لا يشك فى صحة نسبها .

٧ - التّحرى والدّقة فى النقل ، لأن الله تعالى عند مقال كل قائل .

٨ - الإيجاز والاختصار ، والبعد عن التطويل « بمستنكر الأقاويل، وشنيع الحكايات، وبنّيات الطرق[2] ، فقد كان يقال : « من تتبع غرائب الأحاديث كذب »[3].

٥ـ معاجم أخرى:

وقد أجمل السيوطى في المزهر حركة المعاجم بعد حديثه عن كتاب «المجمل» قائلاً:

وأعظم كتاب ألّف في اللغة بعد عصر الصحاح كتاب: المحكم، والمحيط الأعظم لأبى الحسن على بن سيده الأندلسي الضّرير.

---

(١) المزهر ١/ ٩٧ .

(٢) بنيات الطرق : الأكاذيب والتّرهات .

(٣) المزهر ١/ ١٠٣ .

ثم كتاب: «العباب» للرضيّ الصّغاني.

ثم كتاب القاموس لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزابادي.

ويعلق السيوطي علي القاموس فيقول:

«ومع كثرة ما في القاموس من الجمع للنوادر والشوارد، فقد فاته أشياء ظفرت بها في أثناء مطالعتى لكتب اللغة حتى هممت أن اجمعها في جزء مذيَّلاً عليه».

وفى القاموس يقول بعض الأدباء :

قد مدّ مجد الدين فى أيامه ... من بَعْض بحر علومه القاموساً

ذهبت صحاح الجوهريّ كأنّها ... سحْر المدائن حينما ألقى موسى [1]

- القبائل التى أخذت عنها اللغة ودُوّنت فى المعاجم:

قبل أن ننهى الحديث عن المعاجم ، وما كان لها من أثر فى نموّ اللغة وتطورها وحفظ ما سمع منها ، وحصر تراكيبها فى مجال المفردات من الثنائىّ والثلاثىّ ، ووضع الصيغ أحب أن أبين ، هل اللّغة جمعت من كلّ القبائل أو من قبائل معيّنة ، احتفظت بالفصاحة، ودرجت على سلامة الاستعمال ؟

لاشك أن القبائل العربيّة ليست على مستوى واحد فى حقل مفردات اللغة ، فقد «تكون الكلمة واحدة ولكن القبائل تستعملها فى معان مختلفة كمادة الوثب ، فالحجازيّون يستعملونها فى معنى قفز ، واليمانيون يستعملونها استعمالا مضادًا ، فيقولون : ثب أى اقعد ... ويروون أن حجازيًا خاطبه ملك حميرى بثب ، فقفز . وانما كان يريد الملك اقعد ، فقال الملك إذ ذاك : « من دخل ظفار حمّر » ، وظفار مدينة يمنيّة أى من دخل ظفار فليتكلم الحميرية [2] .

- وقد يكون الأختلاف فى الحركات ، فبعض القبائل كقريش تفتح حرف المضارع فيقولون : « نَسْتعين » ، وبعضها كأسد تكسرها ، فتقول : نسْتعين » [3] .

- وقد يكون الاختلاف من « أهم الأسباب فى كثرة المترادفات فى اللغة العربية فإحدى القبائل تضع اسماً لشىء ، وتضع قبيلة أخرى اسماً آخر ، وقد وردت أدلة على ذلك فقالوا مثلاً إن السكر اسمه البُرت بلغة اليمن» [4] .

---

(١) المزهر ١/ ١٠٢ .

(٢) ضحى الإسلام : ٢/ ٢٤٣ .

(٣) المصدر نفسه والصفحة .

(٤) المرجع نفسه / ٢٤٥

- فصاحة القبائل بين البصريين والكوفيين :

على أن فصاحة القبائل العربيه لم تكن موضع اتفاق بين البصريين والكوفيين .

- فالبصريّون لم يأخذوا اللّغة من كلّ قبيلة ، لأن القبائل عندهم لا تتساوي فى الفصاحة، فهناك قبائل اعتصمت بالصحراء ، واعتصمت بالعزلة ، وعاشت فى مأمن من الاختلاط بالأجانب حينما فتح باب الاختلاط على مصراعيه بعد الفتوحات الإسلامية.

وهناك قبائل اتصلت بغيرها ، وتأثرت لغتهم بالوافدين من الأعاجم أو المجاورين لهم. وهذه القبائل يحترس اللّغويّون البصريّون من الأخذ عنها ، صيانة للغة ، وحفاظاً على بنائها .

ولكن ما القبائل التى اعتمد عليها البصريّون فى نقل اللغة ؟

يجيبنا عن هذا التساؤل أبو نصر الفارابى فى كتابه المسمّى بـ « الألفاظ والحروف » حيث حدد هذا القبائل ، وعدّدها فقال :

« والذين نقلت عنهم اللغة العربية ، وبهم اقتدى ، وعنهم أخذ اللسان العربىّ من بين قبائل العرب هم : قيس وأسد ، فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه ، وعليهم اتكّل فى الغريب وفى الإعراب ، ثم هذيل ، وبعض كنانة ، وبعض الطائيّين، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم [١] .

- والكوفيون لم يلتزموا المنهج المتشدّد الصارم الذى فرضه البصريّون على نقل اللغة العربية من القبائل ، فقد كان الكوفيّون يستشهدون بلهجات عرب الأرياف الذين وثقوا بلغتهم ، ومن ثم فقد عاب البصريّون على الكوفيين أنهم يأخذون اللغة عن أكلة الشوارز [٢] ، وباعة الكواميخ » [٣] .

---

(١) الأقتراح / ٢٤ طـ أولى ، حيدر أباد .

(٢) الشوارز : الألبان الثخينة .

(٣) الكوامخ : المخلّلات يشهّى بها الطّعام ، وانظر الاقتراح / ١٠٠ .

- نقد ومناقشة للمنهج البصرىّ:

فى رأيى أن منهج البصريين فى تحديد هذه القبائل التى أشرنا إليها ، وأنها هى التى يعول عليها فى أخذ اللغة ، منهج تعوزه الدقة ، ولا يقوم على أساس علمىّ متين ، لأنه على فرض أنها عاشت سجينة فى بيئاتها البدويّة ، تغلق أبواب الاختلاط، وتقيم أسوار العزلة بينها وبين الأعاجم ، وأنها بهذه الصفة تضفى على نفسها ثوب القدسية، أقول - على فرض أنها كانت كذلك - لنزل بها القرآن الكريم الذى أعجز العرب ، ولكنه نزل بلغة قريش ، وقريش لم تكن فى معزل عن العالم الخارجىّ ، لأن مكة موطن قريش كانت قِبْلة العرب فى الجاهليّة والإسلام .

ويتحدث أستاذنا السباعى بيومى عن لغة قريش فيقول :

« العرب فى الحج ، وفى الاعتمار يفدون إلى البيت الحرام ، فينقل العرب إلى لغتهم ما يستحسنونه من ألفاظ وعبارات حتى اتسعت لغة قريش ولم تكن قريش محل وفادة فحسب ، بل كانت بحكم عملها التجارى لا تزال تقطع بلاد العرب برحلتى الشتاء والصيف إلى اليمن جنوباً ، والشام شمالاً » (١) .

ولم يقل أحد : إن لغة قريش د عيفة لا يحتجّ بها ، لأنها لم تكن فى معزل عن غيرها، ولو كان الأمر كذلك لرفض الاحتجاج بالقرآن ، لأن معظمه نزل بلغتهم .

الحقّ أن البصريّين فى تحديدهم هذه القبائل جانبوا الصّواب ، والحقّ ما قاله الفرّاء بصدد تأثير مذهب أهل السنة في « أن القرآن الكريم نزل بأفصح اللغات ، ويردّ على بعض علماء الشعر ، ورواة الأخبار التّاريخية عن عرب البادية ـ لا يريدون أن يلتمسوا إعجاز القرآن فى قوالبه اللّغوية ، بل يرون كمال الفصاحة فى لغة عرب البادية ، ثم يختلفون : الكوفيون والبصريّون،والمدنيّون، والمكيّون حول أى القبائل أفصح ؟ حسب اختلاف جوار كل منهم لقبيلٍ من العرب ، فيذهب الفرَّاء رادًّا على جميع هؤلاء إلي أن لغة القرآن أفصح أساليب العربيّة على الإطلاق » (٢) .

---

(١) تاريخ الأدب العربي / ٥٨ مطبعة العلوم . (٢) العربية ليوهان فك / ٥

ويشيد ابن فارس بلهجة قريش أو بلغتها حيث يقول :

« إن قريشاً أفصح العرب ألسنة ، وأصفاهم لغة ، وذلك أن الله تعالى اختارهم من جميع العرب ، واختار منهم محمّدًا صلّى اللّه عليه وسلم . فجعل قريشاً قُطّان حرمه، وولاة بيته ، فكانت وفود العرب من حُجّاجها وغيرهم يفدون إلى مكة للحجّ ، ويتحاكمون إلى قريش في دارهم ، وكانت قريش مع فصاحتها . وحسن لغاتها ، ورقة ألسنتها إذا أتتهم الوفود من العرب تخيّروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم ، وأصفى كلامهم ، فاجتمع ما تخيّروا من تلك اللغات إلي سلائقهم التى طُبعوا عليها ، فصاروا بذلك أفصح العرب [1] .

- المعاجم العربيّة تحتاج إلى تمحيص وتدقيق :

وعلى الرغم من الجُهْد الذى يستدعى الإعجاب برواية اللغة ، وتلقيها عن طريق المشافهة والسّماع فإن رواة اللغة لم يلتزموا منهجًا محدّدًا فى هذا الجمع ، ولم يرسموا خطة واضحة فى هذا التلقى ، فقد جمعوا كلّ ما روي من غير تنسيق أو ترتيب ، ولم ينسبوا كل لفظة سمعوها ، أو كلمة تلقوها إلى قبيلتها التى تنطق بها . وقد قدّمت أن القبائل تختلف فيما بينها فى مجال دلالات الكلام ، قد تكون هناك كلمات ، اختلف فى تحديد معانيها، واللفظ بها - كما يقول المرحوم الأستاذ أحمد أمين - يحتمل أكثر من معنى واحد

ولا نبالغ إذا قلنا : إن العيوب اللسانية رويت على أنها لغات ، وفى حقيقة أمرها خارجة عن الصواب اللغوى فى النطق لعيوب صوتية، فقد ينطق بها عربى ألثغ، فيظنها الآخذ عنه لغة، علي أن علماء اللغة وضعوا كلّ ما سمعوه تحت المجهر ، ليفحصوا ما سمع ، ويحرّروا ما روى ، ويدقّقوا فى كُلّ كلمة يتسرب إليها الشك فبيّنوا من اللغة ما هو صحيح وفصيح ، وضعيف منكر ، ورديء مذموم ...

وألف ابن خالويه كتاباً سماه : « ليس فى كلام العرب » بين فيه ألفاظاً تستعمل ، ولم يصحّ سماعها من العرب ، وقالوا: قال الأصمعى : «ما سمعنا العام قابة» أى صوت رعد، ولم يروه أحد غير الأصمعى « وإنما روى العلماء : « ما أصابتنا العام قابة أى قطرة» [2] .

---

(١) المزهر ١/ ٢١٠

(٢) انظر ضحى الإسلام ١/ ٣٠١ .

على أن رواة اللغة بعد أن جمعوا اللغة جمعاً عشوائيًا اتجهوا إلى جمعها فى نطاق الموضوع الواحد « وأظهر ما كان ذلك فى كتاب الأصمعى ، فله كتاب : «الأنواء » ، وكتاب «الميسر » و « القداح » وكتاب « خَلْق الفرس » وكتاب « الإبل » وكتاب «الشتاء».

وكانت الخطوة الثالثة بعد ذلك عمل المعاجم ، وهى التى عقدنا هذا الفصل لها لنبين أن هذه اللغة بذل فى سبيل جمعها ما بذل ، لأنها لغة القرآن الكريم، وخشية من أن تضيع وتذوب فى هذا البحر الخِضَمّ من اللغات الأجنبية المختلفة التى انتشرت فى الجزيرة العربية وغيرها من أرجاء الوطن الإسلامى قاموا بهذا الجهد الجبّار، ليحافظوا على بنائها من عوادى المؤثرات الأجنبية .

وبهذ الجهد الجبار : « خرجت اللغة العربية من هذا المأزق سليمة قوية واسعة ، لأنها لغة الدين ، ولغة العلم ، والفلسفة ، ولغة الأدب ، واضمحلت بجانبها كل لغات البلاد المفتوحة » (١) .

- صيانة اللغة من اللحن :

جمع اللغة فى المعاجم - كما قلت - عمل جبار قام به اللغويون ليحفظوا اللغة العربية فى مفرداتها ، وأساليبها ، وتراكيبها ، لتكون هذه المعاجم المصدر الذى يفزعون إليه حينما يغمض معنى الكلمة ،ولا تتضح دلالتها ، أو حينما يشك فى الكلمة ذاتها هل هى عربية ، أو ليست عربية ؟ أو حينما تتفرّع الدلالات وتتعدد من خلالها .

وبهذه المعاجم حفظت اللغة من عبث العابثين ، وألسنة المنحرفين .

وإلى جانب ذلك ظهرت حركة نشطة في حصر الكلمات التى انحرفت فى صيغها ودلالتها ، وكان ذلك عملاً رائعاً أيضاً يضاف إلى جهود اللغويين في وضع المعاجم .

حقًا : إن اللحن فى اللغة بدا مبكّرًا ، وفى عصر الرسول عليه السلام ، وفى عصر

---

(١) المرجع السابق بتصرف .

الخلفاء ، ولكنه لم يكن ذا خطر عظيم ، لأنه كان محصورا فى فئة الموالى والعبيد الذين دخلوا الإسلام. «فصهيب الرومى من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول: « إنك لهائن » ، يريد : إنك لحائن ، وكان صهيب يرتضخ لكنه رومية[1]»

والشاعر سحيم المشهور بعبد بنى الحسحاس المعاصر لرسول الله صلى الله عليه وسلم « كان يرتطن لكنة أجنبية »[2].

وسحيم هذا حبشى الأصل اشتراه عبد الله بن أبى ربيعة المخزومى ، وكتب إلى عثمان بن عفّان رضى الله عنه : « إنّى قد اشتريت لك غلاماً حبشيا شاعراً» فكتب إليه: « لا حاجة لنا فيه ، إنما حظّ أهل الشاعر منه إذا شبع أن يشبّب بنسائهم ، وإذا جاع أن يهجوهم »[3].

ولا أبالغ إذا قلت : إن هذا اللحن امتدّ إلى القرآن الكريم نفسه ، فعن أبى الدرداء قال: « سمع النّبى صلى الله عليه وسلم رجلاً قرأ فلحن ، قال : « أرشدوا أخاكم»[4]. وفى رواية سجلها ابن جنى فى الخصائص : « أرشدوا أخاكم ؛ فإنه قد ضلّ »[5].

وفى العصر الأموى والعصر العباسى حيث امتدت رقعة الدولة الإسلامية من المحيط إلى الخليج - انتظم فى سلك الإسلام كثير من الأجناس الذين كانوا يرتضخون لُكنات مختلفة ، وقويت في العصر العباسى شوكة الموالى ، وكان لهم من السطوة والبأس ما يجعلهم يديرون سفينة الأمور ، ويشتركون فى مقاليد الحكم .

فى هذين العصرين ، بدأ اللحن يعلن عن نفسه ، ويتسرب إلى البيوتات العربية فأفسد الكثير من ألسنتها ، وكان خطبه جسيماً ، فلم يشمل العامة وحدهم ، بل امتدت سطوته إلى الخاصة ، بل إلى البلغاء والفصحاء .

---

(١) انظر البيان والتبيين للجاحظ ١ ٧٢ ، تحقيق الأستاذ هارون

(٢) العربية لبوهان فك ١٣

(٣) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١٥٣

(٤) كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال ١ ١٥١

(٥) الخصائص ٢ ٨

ولم يكن مقصوراً على لحن اللسان عند التحدّث فى مقامات الكلام المختلفة ، بل تجاوز ذلك إلى القرآن الكريم نفسه ، فكان الخطب جسيماً ، والمصيبة بالغة. وكانت مصيبته أشد حينما وقع العلماء والفصحاء فى شركه ، وانحرفت ألسنتهم فى مجال القرآن الكريم عن جادة الصواب .

وهذه صور من اللحن وقع فيها خاصة العرب من الفصحاء ، وبعض الخاصة من العلماء الأعاجم فى مجال القرآن الكريم .

١ - صور من اللحن فى القرآن الكريم :

الحجاج كان يضرب به المثل فى الفصاحة والبلاغة ، وأحد الأربعة الذين اشتهروا بالفصاحة ، والذين يتحدث عنهم الأصمعى فيقول :

« أربعة لم يلحنوا فى جدّ ولاهزل،: الشعبى ، وعبد الملك بن مروان ، والحجاج ابن يوسف ، وابن القرية ، والحجاج أفصحهم [١] .

ومع ذلك فقد رووا أنه لحن فى القرآن ، يحدثنا الجاحظ فيقول :

روى الحسن أن الحجاج كان يقرأ : « إنّا من المجرمون منتقمون » [٢] .

٢ - لحن أبى جعفر :

حدث أبو حرب قال : « حدثنى عبد الله بن سلمة الأفطس قال : سمعت أبا جعفر يخطب بعرفات فقرأ هذه الآية : « فمن تعجّل فى يومين فلا ثمّ عليه ومن تأخر فلا ثم عليه [٣] موصولتين ، قال : قلت : هذا فى الإثم لم يخرج منه » [٤] .

٣ - لحن الحسن البصرى :

الحسن البصرى وإن كان من الموالى - فقد كان له جهد عظيم فى محاكاة البلغاء

---

(١) أخبار أبى القاسم الزجاجى ، تحقيق الدكتور عبد الحسين مبارك / ٧١ .

(٢) البيان والتبين ٢/ ٢١٨ .

(٣) البقرة / ٢٠٣ .

(٤) الأمالى لليزيدى / ٩٠ .

والفصحاء حتى صار واحداً منهم فى قوة بيانه ، وامتلاكه ناصية اللغة مما جعل علماء اللغة يرفعونه إلى منزلة الحجاج فى مجال الفصاحة والبلاغة .

روى الجاحظ أن رؤبة بن العجاج ، وأبا عمرو بن العلاء زعما أنهما لم يريا قرويين أفصح من الحسن والحجاج »[1] .

ومع هذه الفصاحة فقد لحن الحسن فى القرآن الكريم .

روي الجاحظ أن الحسن غلط فى حرفين من القرآن مثل: صَ والقرآنُ» بضم النون[2] والحرف الآخر : « وما تنزلت به الشياطون »[3] .

٤ سابق الأعمى كان يقرأ: «الخالق البارىء المُصَوِّرُ»[4] بتشديد الواو وفتحها وهى قراءة حولها الحسن إلى الكفر ، ولذلك كان ابن جابان إذا لقيه قال : يا سابق ، مافعل الحرف الذى تشرك بالله فيه ؟ »[5] .

وإذا كان اللّحن فى القرآن قد وصل إلى هذه الكثرة فمن باب أولى أن يقع فى غيره، وهذه بعض صور منه :

ب - صور من اللحن فى غير القرآن الكريم :

عقد الجاحظ فى كتابه : « البيان والتبين » بابًا من لحن البلغاء ، يعرض فيه صورًا من هذا اللحن ، من هذه الصور :

١ روى الجاحظ: «أنه ارتفع إلى زياد رجل وأخوه فى ميراث ، فقال : إن أبونا مات، وإن أخينا وثب على مال أبانا فأكله ، فأما زياد فقال : الذى أضعت من لسانك أضر عليك مما أضعت من مالك ، وأما القاضى فقال : فلا رحم الله أباك ، ولا نيّح عظم أخيك[6] قم فى لعنة الله» .

---

(١) البيان والتبين ٢١٩

(٢) سورة ص ١

(٣) الشعراء ٢١٠ وانظر البيان والتبين ٢ ٢١٩

(٤) الحشر ٢٤

(٥) البيان والتبين ٢ ٢١٩

(٦) يقال لانيح الله عظامه لا صلبها ولا شدها

٢ - وروى الجاحظ عن أبى الحسن قال: «أوفد زيادٌ عبيد الله بن زياد إلى معاوية، فكتب إليه معاوية : أن ابنك كما وصفت ، ولكن قوّم من لسانه » .

وقد قال عبيد الله بن زياد مرة : افتحوا سيوفكم ، يريد: سلّوا سيوفكم فقال يزيد بن مفرّغ :

ويوم فتحت سيفك من بعيد أضعت ، وكل أمرك للضياع [٢]

٣ - وقال رجل للحسن البصرى : يا أبو سعيد ، قال : كسب الدراهم شغلك أن تقول : يا أبا سعيد ، ثم قال : تعلّموا العلم للأديان ، والنحّو للسان ، والطب للأبدان[٣] .

٤ - ومن لحن العلماء الفقهاء أنه قيل : لأبى حنيفة: ما تقول فى رجل أخذ صخرة فضرب بها رأس رجل ، فقتله ، أتقيده بها ؟ قال : لا ولو ضرب رأسه بأبا قبيس»[٤] .

- اعلان الحرب على اللّحن واللحانين:

اتخذ هذا الإعلان الحربى فى القضاء على اللحن طريقين ، وهما :

أ - ذم اللّحن ، ومقاومته بالعبارات الجارحة ، والألفاظ الدامية ، والكلمات القاسية .

ب - تأليف مصنفات فى هذا اللحن من أجل تنقية اللغة العربية منه ومن شروره وأخطاره التى لو تركت وشأنها لقضت على لغة القرآن الكريم .

أما الطريق الأول ، وهو ذم اللحن واللحانين فهذه صور منه :

- صور من ذمّ اللّحن :

١ - رووا أن عبد الملك بن مروان قال : اللّحن هجنة على الشريف »[٥] .

---

(١) (١) البيان والتبين ٢/ ٢٢٢ .

(٢) البيان والتبين ٢/ ٢١٠ ، ٢١١ .

(٣) زهر الآداب ١/ ١٤٥ .

(٤) البيان والتبين ٢/ ٢١٢ ، وأبو قبيس : جبل بمكة

(٥) البيان والتبين ٢/ ٢١٦ .

٢ - قال أبان بن سعيد : اللحن في الرجل ذى الهيبة كالدّنس فى الثوب الجديد»[١].

٣ - كان عبد الله بـن إدريس الذى روى عنه مالك بن أنس إذا لحن الـرجل عنده فى كلامه لم يحدثه [٢].

وأما الطريق الثانـى، وهو وضع المؤلفات أو المصنفات فى اللحـن لكشف عواره وبيان خطره فإننا نتناوله فيما يلى :

- المؤلفات في اللحن :

أ - مؤلفات في لحن الخاصة :

من هذه المؤلفات :

١ - لحن الخاصة لأبى هلال العسكرى المتوفى ٣٩٥ هـ .

٢ - درة الغواص فى أوهام الخواص للحريرى المتوفى ٥١٦ هـ .

ب - مؤلفات فى لحن العامة:

١ - لحن العامة للكسائى المتوفى ١٩١ هـ .

٢ - لحن العامة لأبى عبيدة المتوفى ٢٠٩ هـ .

٣ - لحن العامة لأبى عثمان المازنى المتوفى ٢٠٩ هـ .

٤ - لحن العامة لأبى حاتم السجستانى المتوفي ٢٢٥ هـ .

٥ - لحن العامة لأبى حنيفة الدينورى المتوفى ٢٩٠ هـ .

٦ - لحن العامة لأبى بكر الزبيدى المتوفى ٣٧٩ .

٧ - لحن العامة لابن هشام اللخمى المتوفى ٦٠٠ هـ .

---

(١) ألف باء ١/ ٤٦ لأبى الحجاج يوسف بن محمد البلوى

(٢) تاريخ بغداد ٩/ ٢٤٩

ومما يجدر بنا أن نلاحظه ، أن تسجيل اللحن فى مؤلفات ومصنفات بدأ مبكرًا على يد الكسائى المتوفى ١٩١ هـ ، وامتدّ رصد هذه الأخطاء فى اللغة والنحو إلى أزمان متأخرة .

وفى مجلة المجمع اللّغوىّ تسجيل كامل لهذه المؤلفات حتى عصرنا الحاضر .

- أمثلة من لحن الخاصة فى ضوء كتاب : درة الغوّاص للحريرى :

الحريرى : أبو محمد القاسم بن على المتوفى ٥١٦ هـ ألف كتابه : درة الغواص فى أوهام الخاص لهدف واضح ، وهو تبديد أوهام الخواص فى كلام العرب حيث يعطون الكلمة مدلولاً غيرَ مدلولها ، ومعنًى غير معناها ، ولاشك أن هذا لحن خفى ، والقضاء عليه تحرير للكلام العربىّ من هذه الأوهام .

واهتم بكلام الخاصة حتى لا ينخفض قدرهم ، ولا ينحط مستواه ، ولا يوصمون بالعيب والتحريف .

ذكر ذلك فى مقدمته حيث يقول « فإنى رأيت كثيراً ممن تسلمّوا أسْنمة الرّتب ، وتوسّموا بسمة الآدب قد ضاهوا العامّة ، في بعض ما يفرط من كلامهم ، وترعف به مراعف أقلامهم ممّا إذا عثر عليه ، وأثر عن المعزّو إليه خفض قدر العلْية ، ووصم ذا الحلية، فدعانى الأنفُ لنباهة أخطارهم ، والكَلَفُ بإطابة أخبارهم إلى أن أدْرَأ عنها الشبه، وأبيّن ما التبس عليهم واشتبه ، لألتحق بمَنْ زكّى أكْل غَرْسه ، وأحب لأخيه ما يُحبُّ لنفسه، فألفت هذا الكتاب تبصرة لمن تبصّر ، وتذكرة لمن أرادا أن يَّذكر، وسمّيته: درّة الغوّاص فى أوهام الخواص [1].

وهذه نماذج من تصويبات الحريرى لحن الخاصة :

١ - قال الحريرى: «من أوهامهم الفاضحة ، وأغلاطهم الواضحة أنهم يقولون : قدم سائر الحاجّ ، واستوفى سائر الخراج .

---

(١) درة الغواص / ٢ - ٣ .

يستعملون سائراً بمعنى الجميع ، وهو فى كلام العرب بمعنى الباقى».

والأدلة التى يقدمها لتصويب هذا التعبير متمثلة فى الحديث الشريف وفى الشعر العربى، أما الحديث فقد ورد أن النّبى صلّى الله عليه وسلم قال لغيلان حين أسلم وعنده عشر نسوة: «اختر أربعًا منهن ، وفارق سائرهن » أى من بقى بعد الأربع اللائى تختارهن،

وأما الشعر فقد استدل بما أنشده سيبويه :

ترى الثور فيها مُدخِل الظّلّ رأسَه

وسائره بادٍ إلى الشّمس أجْمَعُ (١)

ويضيف الحريرى إلى ما أنشده سيبويه قول الشنفرى :

لا تقبرونى إن قبري محرّم عليكم ، ولكن أبشرى أم عامر

اذا احْتُملت رأسى وفى الرأس أكثرى وغُودرَ عِنْد المُلتقى ثَمّ سائرى (٣).

٢ - ويقولون : فلان يستأهل الإكرام ، وهو مستأهل للإنعام ، ولم تسمع هاتان اللفظتان فى كلام العرب ، ولا صوبّهما أحد من أعلام الآدب .

ووجه الكلام أن يقال : فلان يستحقّ التكرمة ، وهو أهل للمكرُمةُ.

فأما قول الشاعر :

لا، بل كُلى أُمىَّ واستأهلى

إنّ الذى أنفقتُ من مالِيَهْ

فإنه عنى بلفظه « استأهلى » أى اتخذى الإهالة ، وهى ما يؤتدم به من السمن والودك.

وفى أمثال العرب : « استأهلى إهالتى، وأحْسِنى إيالتى » أى خذى صفو طُعْمتى وأحسنى القيام بخدمتى (٤).

---

(١) درة الغواص / ٢ - ٣ . (٢) سيبويه / ١ : ٩٢

(٣) انظر درة الغوّاصّ / ٢ ، ٣ . (٤) المصدر نفسه / ١١

٣ - ويقولون للمريض : « مسح الله ما بك » بالسين

والصواب فيه « مَصَح » كما قال الراجز :

قد كاد من طول البِلى أن يُمْصَحا [١] .

وكقول الشاعر وقد أحسن فيه :

يا بدرُ إنكّ قد كُسيتَ مشابها

من وجه أمّ مُحمّد ابنة صالح

وأراك تمصح فى المُحاق وحسنُها باقٍ على الأيام ليس بما صِحِ

ويحكى أن النضر بن شميل المازنىّ مرض ، فدخل عليه قوم يعودونه فقال له رجل منهم يُكْنى أبا صالح : « مسح الله ما بك » فقال له : لا تقل : « مسح » بالسين ، ولكن قل : « مصح » بالصاد ، أى أذهبه وفرقه ، أما سمعت قول الشاعر :

وإذا ما الخمْرُ فيها أَزبدت أفل الإزباد فيها ومَصَحْ

فقال له الرجل : إن السِّين قد تبدل من الصاد ، كما يقال ، الصّراط ، والسّراط وصقر ، وسقر ، فقال له النّضر ، فإذًا أنت أبو سالح » [٢] .

٤ - ويقولون لمن يحمل الدواة : دواتّى :

وهو من اللحن القبيح ، والخطأ الصريح . ووجه القول أن يقال فيه : دووىّ ، لأن تاء التأنيث تحذف فى النّسب كما يقال فى النّسب إلى فاطمة : فاطمىّ ، والى مكة: مكىّ [٣] .

٥ - ويقولون:لعلّه ندم ، فيلفظون بما يشتمل على المناقضة ، وينبىء عن المعلرضة.

ووجه الكلام أن يقال :لعله يفعل ، أو لعله لا يفعل ، لأن معنى «لعل» التوقّع لمرجو أو مَخُوف . والتّوقّع إنما يكون لما يتجدّد ويتولّد ، لا لما تقضّى وتصرّم ، فإذا قلت : خرج فقد أخبرت عمّا قُضى الأمر فيه ، واستحال معنى التوقع له ، فلهذا لم يجز دخول لعل عليه»[٤].

---

(١) المصدر نفسة / ١٥ . (٢) درة الغواص / ١٣ ، ١٤ .

(٣) المصدر نفسه / ٢٠ . (٤) المصدر نفسه / ٣٠ .

ونكتفى بهذه النماذج من لحْن الخاصّة التى اخترتها من درة الغواص ، لأنه أحد المؤلفات التى وضعت فى لحن الخاصة ، وبيان هذا اللحن ، ووجه الصواب فيه . وننتقل بعد ذلك إلى عرض نماذج من لحن العامة فى ضوء كتاب « لحن العامة للزبّيدى».

والنماذج من كلا المؤلفين تغنينا عن نماذج أخرى من المؤلفات المتعددة فى مجال لحن الخاصة ، ولحن العامة ، لأن الهدف فى هذه المؤلفات هدف مشترك وهو تنقية اللغة العربية مما علق بها من لحن الخواص ولحن العوام .

- **أمثلة من لحن العامة فى ضوء كتاب: «لحن العامة للزبيدى» .**

الزبيدى هو أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدى ، المتوفى ٣٧٩ هـ .

يبين الزبيدى منهجه فى كتابه ، وهدفه من تأليفه فيقول بعد إشادته باللغة العربية ، وأنها أفصح اللغات لساناً ، وأوضحها بياناً ، وأوسعها افتناناً ،وأعذبها مخارج ، وأقومها مناهج ، وأصحها مقاطع، وألطفها مواقع .

يقول :

« ولم تزل العرب فى جاهليتها، وصدْر من إسلامها تبرع فى نطقها بالسجيّة وتتكلّم على السليقة، حتى فتحت المدائن ، ومصّرت الأمصار، ودونَت الدّواوين ، فاختلط العربى بالنبطىّ ، والتقى الحجازى بالفارسىّ. ودخل الدين أخلاط الأمم ، وسواقط البلدان ، فوقع الخلل فى الكلام وبدأ اللّحن فى ألسنة العوام » .

والزّبيدىّ سبقه إلى وضع كتاب فى لحن العامة أبو حاتم السّجستانى سهل بن محمد المتوفى ٢٥٥ هـ ، وقد أشار إلى مؤلفه الزّبيدىُّ قائلاً : « وضع أبو حاتم كتاباً اغتزى[١] به تقويم ـ ما غيّره أهل عصره من كلام العرب ، وسماه : « لحن العامة » .

ويمضى الزّبيدى متحدّثاً عن لحن العامة للسجستانى إلى أن يقول : « ثم نظرت فى المستعمل من الكلام فى زماننا وبأفقنا ، فألفيتُ جملاً لم يذكرها أبو حاتم ، ولا غيره من اللّغويين ، فيما نبّهوا عليه ، وذكروا أن مما أفسدته العامة عندنا ، فأحالوا لفظه ،أو وضعوه فى غير موضعه » [٢] .

---

(١) اغتزى : قصد .

(٢) انظر مقدمة لحن العامة للزبيدى .

وفى ضوء حديث الزبيدى عن كتاب أبى حاتم نتبين أن لحن العامة للزبيدى يمثّل مرحلة زمنيّة عاش فيها الزّبيدى، ليسجّل بأذنه المرهفة ما لحن فيه العامة من الألفاظ والعبارات ، وهى مرحلة تختلف عن المرحلة الزمنيّة التى عاش فيها أبو حاتم ، فكتابه فى هدفه لا يختلف عن كتاب أبى حاتم وإن اختلفت الألفاظ التى انحرفت ، أو العبارات التى فسدت، لأن لكل زمن سماته الخاصة فى اللحن أو الخطأ .

ومن هنا كان الهدف واضحاً فى ذهن الزّبيدى من تأليفه هذا الكتاب وهو أن ينبه على الخطأ، ويبيّن وجه الصّواب فيه ، وأن يفرد لما يحضره منه كتابا يحصر فيه الخطأ ، ويجمعه ، ليبيّن سبب الخطأ مع تسجيل صوابه ، وذلك كله من أجل الحفاظ على اللغة العربية والحرص على استعمال كلماتها فى مواضعها وعباراتها فى الأطر التى وضعت لها.

وهذه نماذج من لحن العامة :

فى باب ذكر ما أفسدته العامة ، ووضعوه غير موضعه ، يسوق عبارات جرت على ألسنة العامة مع أنها غير سليمة من الوجهة اللغوية ، من ذلك :

١ - قولهم : « هو الله الأزلىّ قبل خلقه» وقولهم : « لم يزل واحدًا فى أزليّته ، وقولهم : « وكان هذا فى الأزل » .

قال الزّبيدّى : « وذلك كله خطأ لا أصل له فى كلام العرب ، وإنما يريدون المعنى الذى فى قولهم : « لم يزل عالماً » .

ولا يصح ذلك فى اشتقاق ولا تصريف ، وقد أولع بالخطأ فى هذا أهل الكلام والمدّعون لحدود المنطق حتى غرّ ذلك جماعة من الخطباء فأدخلوه فى خطبهم ثم قال :

« ولا يجوز لأحد أن يصف الله - عزّ وجلّ - بغير ما وصف به نفسه فى محكم كتابه وحيًا، أو ما ثبت به الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولو صحت الكلمات فى الاشتقاق ، وتمكنت فى التصريف [١] .

---

(١) لحن العامة / ٤٧ .

٢ - قولهم فيه - تبارك وتعالى : « هذه صفة ذاته» وقولهم : «وهو مباين بالذّات» قال الزبيدى : « ولا يجوز أن يلحق الألف واللام : « ذو » ولا « ذات » فى حال إفراد ، ولا تثنية ، ولا جمع ، ولا تضاف إلى المضمرات ، وإنما تقع أبدًا مضافة إلى الظاهر ، ألا ترى أنك لا تقول : الذو ، والذّوان ولا الذّون ، ولا الذّات ، ولا الذّوات ، ولا ذوك ، ولا ذوه، ولا ذوهن ، ولا ذواتها ، ولا تقول : مررت بذيه ، ولا بذيك » [١] ويبيّن الزبيدىّ أن هذه الأخطاء ، وقع فيها الخاصة حيث قال :

« وقد غلط فى ذلك أهل الكلام ، وأكثر المحدثين والقرّاء ، والكتّاب والفقهاء وكذلك زعم أبو جعفر النّحاس عن أصحابه رضى الله عنهم. فأما قولُهم : ذى رُعين ، وذى أصبح ، و « ذى كلاع » : الأذواء ، [٢] وقول الكميت :

* ولكنىّ أريد به الذّوينا *

فليس من كلامهم المعروف [٣] .

٣ - ويقولون : « أللّهم صَلّ على محمد وآله » .

قال الزّبيدى : كـ«ذو» ، ذكر ذلك أبو جعفر بن النحاس ، وزعم أن العرب لا تستعمل إضافة « آل » إلى المظهر خاصة ، وأن لا تضاف إلى مضمر .

قال الزّبيدىّ : والصّواب : اللهم صل على محمد وآل محمد .

وفى الحديث أن بشير بن سعد قال : « يا رسول الله : إن الله أمرنا أن نصلى عليك ، فكيف نصلى عليك ، فسكت رسول الله حتى تمنّى أنهّ لم يسأله . ثم قال : قولوا : الله صلّ على محمد ، وعلى آل محمد، كما صليت على آل إبراهيم ، وبارك على محمد ، وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد» .

---

(١) المصدر نفسه : ٤٨ .

(٢) وهم ملوك اليمن .

(٣) المصدر نفسه : ٤٨ ، ٤٩ .

وعقب على ذلك الزّبيدى بقوله: «وفى هذا الحديث الذى ذكرناه دلالة على ما ذكره أبو جعفر مع أنا لم نره مضافاً إلى مضمر لمن يوثق بعربيته [1].

٤ - ويقولون للقملة الصّغيرة : صِئبانة .

قال الزبيدى : والصواب : صُوَّابة ، وجمعها : صُؤاب ، ثم يجمع الصُّواب: صِئْبانًا ويقال : قد صَئِب، إذا كثر فيه الصِّئبان، وإنما دُخِل عليهم لقولهم: صئبان، فتوهموا أن واحدته صئبانة ، وظنوه من الجمع الذى ليس بينه وبين واحده إلا الهاء .

ويستدل على هذا التصويب بشعر لطيف يروّح عن النفس بخبر ساقه وقصة ذكرها، قال:

« وقرأت على أحمد بن سعيد ، أنشدكم أبو إسحاق إبراهيم بن محمد من أهل شيراز لبعض الأعراب .

لما رأت شَيْب قذالى عيسا
وحاجبىّ أعقبا خَليسا
وصَلَعَة ، الطَّسْت عَلطميسا
لا يجد القمل بها تعريسا
ولا الصُّؤابات بها تأسيسا
قَلَتْ وصالى واصْطَفَتْ إبليسا
وصامت الإثنين والخميسا
عبادة كنت لها نقْريسا[2]

ونختم القول فى تطوّر اللغة فى مجال الصِّيانة والحفظ، ونفى ما ليس منها، وإبعاد ما دخل فيها من التحريف فنقول :

إن هذا العمل العظيم لم يحدث فى تاريخ لغة من اللغات قبل اللغة العربية أو بعدها

---

(١) لحن العامة ... ص ٥٠.
(٢) المرجع نفسه والصفحة

فهذا الجهد الجبار الدافع إليه هو شعورهم العميق بأن هذه اللغة مقدسة لارتباطها بالقرآن الكريم المقدس . وأى اهتزاز فى البناء اللّغوى بسبب اللحن والتحريف لاشك يؤثر فى القرآن الكريم نفسه لأنه الوعاء الأكبر لمفردات اللغة ، وأساليبها ، وتراكيبها ، وألفاظها ومعانيها .

ولذلك نجد أنه لا يخلو عصر من العصور الإسلامية من القيام بهذه التّنقيّة اللّغوية ليبقى فقط الصواب اللغوى بعيداً عن ألسنة اللاحنين . ولاشك أن هذا التّطوّر أفاد اللغة العربية إفادة كاملة ، لأن جوانبها أضيئت ، وما خفى منها ظهر ، وما دخل فيها انكشف ، وهذا أمدّها بروح من عند الله جعلها صامدة لا تتزعزع ، حيّة لا تموت ، يتقبلها الخلف عن السّلف وهى في عمر الشباب ، لا نعرف لها طفولة ولا شيخوخة .

وإلى جانب هذه الانحرافات اللّغوية المتمثلة فى اللّحن ، ونعنى به ، إعطاء الكلمة مدلولا غير مدلولها، أو نطقها على غير وضعها، أو إبدال بعض حروفها إبدالاً اعتباطيًا، أو التصرف فى مخارج أصواتها التى وسمت بها ، أقول إلى جانب ذلك كانت هناك كلمات وسمت بأنها غير عربيّة تسرّبت إلى البناء اللغوى منذ عهد قديم، ودخلت فى النسيج القرآنى ، وهذه الكلمات تشكل قضيّة لغوية نتناولها فى الفصل التالى .